

كلمة العدد

سنة 2010 سنة الشباب ورفع التحديات

بقلم: أ. محمد الرزقي

تطوى السنة الإدارية الجديدة أولى صفحاتها، وقد كان العنوان الأبرز فيها، تنظيم الندوة الدولية حول الشباب، تحت سامي إشراف الرئيس زين العابدين بن علي، خاصة بعد قبول المبادرة التونسية بجعل سنة 2010 سنة دولية للشباب، وهو ما يجعلنا نستخلص جملة من الدلالات، من أهمها وعي أهل القرار في بلادنا بأهمية هذه الفئة العمرية في مسيرة الإصلاح والبناء، أما الدلالة الثانية فتبين المكانة المرموقة التي تحظى بها تونس على الصعيد العالمي، إذ سبق للأمم المتحدة أن تبنت المشروع التونسي الرائد، والمتمثل في تعميم تجربة تونس في التضامن الوطني، وتأسيس صندوق عالمي للتكافل.

لكن تتركز هذا التوجه على أرض الواقع، تسبقه مرحلة التوصيف للواقع الشبابي عامة والتونسي على وجه الخصوص، من خلال رصد أهم المشاكل التي تعيق فئة الشباب من الإسهام الناجع في مسيرة التنمية، وهو ما تجلّى بوضوح في المداخلات القيّمة، لجملة من الأساتذة والباحثين الأجلاء في هذه الندوة.

فتلخصت مقارباتهم في تسليط الضوء على بعض المعوقات، والتي لم تخرج عن الإطار الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، مع إبراز آثار هذه المعوقات على الصعيد النفسي والسلوكي، خاصة أمام بروز ظاهرة الإرهاب في

العالم، إذ تعتبر فئة الشباب الفئة المفضلة لبعض الرجعيين.

ليتعرض أهل الاختصاص بكل إسهاب، إلى مشاكل البطالة والحلول المقترحة لحلها، باعتبار أن استشرء هذه الظاهرة لها تداعيات اجتماعية كبيرة، مثل غياب الاستقرار العاطفي وصعوبة تكوين أسر جديدة، مما يجعل بعض الشباب يصاب بالإحباط، ويصبح لقمة سائغة للأفكار المتطرفة، أما المجال السياسي فحلل السادة الحضور أسباب عزوف الشباب عن المساهمة في النشاط السياسي والجمعياتي، وأشادوا بدور تونس في الإنصات إلى الشباب، وتشريكهم في اتخاذ القرار، من خلال تخفيض سن الانتخاب.

ويبقى الرهان على الشباب من الأهداف الإستراتيجية لقائد التغيير، باعتبارهم يمثلون وقود النجاح، والضامن الحقيقي لتواصل مسيرة النجاح وهو انخرطت فيه مجلة الإتحاف، في السنوات الأخيرة، إذ دعمت أسرتها الموسعة بجملة من الأقسام الشابة والواعدة، ولبت جملة من اقتراحاتهم، سواء بإحداث أركان جديدة، مثل القسم الفرنسي بالمجلة، أو تدعيم الدراسات العلمية فيها، فضلا عن تحديد ثوب المجلة، وإخراجها في شكل متأنق، يقطع مع الرتابة والنمطية، خاصة أن المجلة تتأهب في شهر مارس للاحتفال بمرور ربع قرن على تأسيسها، وهو لعمري حدث جليل، أتمنى أن يشارك فيه كل من ساهم في نجاح هذه المجلة، وتقيم مجهوداتها بصورة موضوعية وحيادية، بعيدا عن الحساسيات الشخصية، فالإتحاف مكسب وطني بالأساس، ولبنة من لبنات المشهد الثقافي في البلاد، إذ حافظت على وجودها رغم كل الهزات، فكل عام وشباب تونس بألف خير.

عصر القاضي عياض

بقلم : د. رشيد الطباخ

1- الحالة السياسية :

عاش القاضي عياض اليحصبي فترة تمتد فيما بين سنة (1083/476) وسنة (1149/544) عاصر فيها حكم دولتين بالمغرب هما : دولة المرابطين ودولة الموحدين.

ولكي ندرك ملامح عصره لابد أن نعرف بالدولتين، كما أنه من الأهمية بمكان، ان نبين اثر هذين العهدين في شخصية عياض وموقفه منهما.

ARCHIVE

<http://archive.org/Sakhril.com>

أ- الدولة المرابطية (448-1056/541-1147).

كان قيام الدعوة المرابطية في الصحراء المغربية على يد عبد الله بن ياسين الجزولي (1) الزعيم الديني للمرابطين. وكان منطلقه إنقاذ الصحراء من الجهالة والتأخر اللذين يتخبط فيهما هذا المجتمع .

مكث عبد الله بن ياسين في الصحراء بين قبائل لمتونة وجدالة ومسوفة ينشر الفضيلة ويربي النفوس على تعاليم القرآن والسنة ويطهر الحياة الصحراوية من الفساد وما عليه الناس من ضلالة.

والتف حول هذا الزعيم عدد كبير من رجال الصحراء، كون بهم جيشا قادرا على إخضاع القبائل العادية ونشر احكام الإسلام

وقد كان بين قبيلة لمتونة بقيادة عبد الله بن ياسين وبين بورغواطة - الموغلة في الجهل والضلالة - حروب طاحنة (2) استبسل فيها هذا الزعيم واتباعه حتى توفي في إحدى معاركه "بتامسنا" سنة (1059/451) وكان هدفه نشر التعاليم الإسلامية وفق المذهب المالكي (3).

وخلف عبد الله بن ياسين أبو بكر بن عمر الصنهاجي اللمتوني، الذي اقتفى سيرة سلفه في محاربة البدع وإرجاع سائر القبائل إلى مذهب أهل السنة والجماعة وتوطيد الدعوة المرابطية. ولّى أبو بكر ابن عمه يوسف بن تاشفين قائداً على الجيش المرابطي لفتح المغرب بكامله، ثم عاد إلى الصحراء لما قامت الخلافات بين القبائل هناك سنة (1026/453) (4).

واستطاع يوسف بن تاشفين أن ينتصر على القبائل المعادية وأن يفتح البلاد ويكوّن ملكاً عتيداً، وهو ما جعل أبا بكر يتنازل عن الإمارة المرابطية لابن عمه يوسف ويكتفي بحكم الصحراء (5).

اتخذ يوسف مراكش (6) عاصمة له حيث أصبحت مركز الثقل السياسي للدولة المرابطية. ومنذ ذلك الحين عرفت البلاد المغربية - بسياسة يوسف بن تاشفين القائمة على الكتاب والسنة - حياة مستقرة لفتت أنظار الأندلسيين الذين يعيشون الظلم والمهانة في حكم ملوك الطوائف فضلاً عن الخطر النصراني الذي بات يهدد بزوالهم فاستبشروا بهذا الحكم أيما استبشار. ولم تك تمض سنة (1092/485) حتى دخلت

بلاد الأندلس في طاعة المرابطين الذين ظهروا بمظهر المنقذ للبلاد المغربية والأندلسية ووحدت العدوتين.

وقد أثر هذا الوضع تأثيرا واضحا في مختلف مجالات الحياة كما عدت فترة يوسف بن تاشفين الفترة الذهبية لتاريخ الدولة المرابطية.

وبوفاة يوسف بن تاشفين (7) تولى الحكم ابنه علي الذي سار سيرة أبيه في توخي العدالة والإنصاف ورعاية شؤون الناس والعمل بالشرعية "فكان إذا ولى أحدا من قضاته كان فيما يعهد إليه ألا يقطع أمرا ولا يبت أمرا أو حكما في صغير من الأمور ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء" (8).

ومنذ قيام المرابطين على الحكم فرضوا الأمن في البلاد المغربية والأندلسية - ولا سيما - بانتصارهم في موقعة الزلاقة (9) التي تعد منقذا لمسلمي الأندلس من قبضة نصارى الشمال.

على أن فترة الاستقرار هذه لم تدم طويلا بسبب الأزمات المتنوعة التي صادفت إمارة علي بن يوسف بن تاشفين. فمنذ موقعة إقلش سنة (1108/501) بدا معين الغنائم ينضب، وتجلت مظاهر الأزمة المالية التي اضطرت السلطة المرابطية إلى فرض ضرائب جديدة أثرت في المجتمع المغربي والأندلسي (10).

ولم يكن علي بن تاشفين قادرا على تجاوز هذه الأزمة، بل اسهم - إلى حد كبير - في تعميق أثرها في الرعية بتسامحه المفرط الذي استغله المنحرفون ومثيرو الشغب سواء بالمغرب أو بالأندلس. وقد وصف

المراكشي هذا الأمير فقال : "كان حسن السيرة جيد الطوية نزيه النفس بعيدا عن الظلم، كان إلى ان يعد في الزهاد والمتبتلين أقرب منه إلى يعد في الملوك والمتغلبين" (11).

وبهذا التسامح السليبي ثمرد بعض عمال المرابطين وأعوانهم فظلموا العباد وقست قلوبهم، وكانت سيرة الجبابة مع الناس مبتذلةن استدلووا الأعراض في جبل درن ومن عجز على الوظيفة صودرت أمواله (12).

وقد كانت هذه الأحداث وأحداث أخرى مماثلة محل انتقاد بعض الفقهاء وفي طليعتهم محمد بن تومرت - زعيم الدعوة الموحدية - الذي أحكم استغلال هذه الأحداث، فدعا إلى وجوب تغيير المنكر وتطبيق الشريعة. ومنذ سنة (1121/515) أصبح هذا الفقيه الثائر يهدد بزوال الدولة المرابطية (13).

وازداد الأمر سوءا بوفاة أمير المسلمين علي بن يوسف سنة (1142/537) وتولى ابنه تاشفين لإمارة حيث اضطربت الإدارة حتى لم يعد الجند - خاصة - والرعية - عامة - تكترث بأوامر السلطة وهم يعايشون الخزائم امام الثورة الموحدية (14). كما استغل هذا الوضع اهل الأندلس وأعلنوا ثوراتهم (15) حتى تمزقت البلاد من جديد. وبعد وفاة تاشفين سنة (1144/539) لم يستطع ابنه إسحاق مقاومة الثورة التي يقودها عبد المؤمن بن علي حيث قويت شوكتة وامتد سلطانه في أنحاء المغرب والأندلس وقضى على الدولة المرابطية قضاء تاما في أوائل سنة (1145/542) (16).

علاقة القاضي عياض بالدولة المرابطية :

كان القاضي عياض مؤيدا للدولة المرابطية، وقد عاش في ظلها أحسن أيامه وحظي من أمرائها بالرضا والتبجيل.

ولعل هذا التأيد لا يخلو من مؤثرات نفسية علقته بداخل عياض، فقد سمع - وهو طفل - باحتياز يوسف بن تاشفين أمير المسلمين البحر متوجها بجنوده لنصرة المسلمين من العدو الذي أوغل فيهم القتل، وعودته مظفرا في معركة الزلاقة وانتصارات أخرى حققها المرابطون في نصرة الإسلام. ثم إن هذه الدولة تمكنت من جمع المغرب والأندلس على مذهب واحد، هو المذهب المالكي الذي يحبه عياض ويدافع عنه بكل ما أوتي من قوة. فهذه الأحداث لا يمكن أن تمر على من اتصف بالذكاء والنباهة دون أن تعذف في روعه الميل إلى هؤلاء الساسة والانتصار لهم.

ومما زاد عياضا تعلقا بمنهج أمراء المرابطين وتأيد دعوتهم ما وجدته فيهم من حب للعلم وتقدير للعلماء، ويذكر المؤرخون أنه "اجتمع بمجالس حكام المرابطين وعلى أبوابهم ما لا يماثله إلا ما اجتمع لكبار خلفاء بني العباس والمتشبهين بهم" (17).

ومن مظاهر هذه العلاقة الجيدة بين القاضي عياض وأمراء المرابطين، أنه لما عزم على الرحيل إلى الأندلس اهتبل بأمره أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين فكتب بوصية في شأنه إلى قاضيه بقرطبة ابن حمدين جاء فيها "وفلان (يعني عياضا) أعزده الله بتقواه وأعانه على ما نواه ممن

له في العلم حظ وافر ووجه سافر وعنده دواوين أغفال لم تفتح لها على الشيوخ أقفال، وقصد تلك الحضرة ليقيم أود متونها ويعاني رمد عيونها وله إلينا مائة مرعية أوجبت الإشادة بذكره، والاعتناء بأمره وله عندنا مكانة حفية تقتضي مخاطبتك بخبره وإفخاضك إلى قضاء وطره وأنت - إن شاء الله - تسدد عمله وتقرب أمله وتصل أسباب العون إن شاء الله" (18).

كما اهتم برحلة عياض وزير أمير المسلمين علي بن يوسف، أبو القاسم ابن الجدد، فأوصى به علي ابن حمدين : "... وفلان (يعني عياضا) وله في الفضل مذاهب يخرج عندها الذهب، وعنده من النيل ضرائب، لا يفارق زندها الذهب، ويستقر به فتستقر به وتخبره فتكبره إن شاء الله" (19).

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

على ان هذا التأيد للدولة المرابطية لم يكن مطلقا، في الحق والباطل، فأمثال عياض يصعدون بالحق عند تجاوز صاحب السلطة له، كائنا من كان، ولا يخشون في ذلك لومة لائم. ويصور لنا أبو عبد الله محمد - ابن القاضي عياض - موقف أبيه من عمال تاشفين المنحرفين عن السبيل، وهو يومئذ قاض بغرناطة بقوله : "لكن تاشفين ضاق به ذرعه وغص بموافقته له في الحقائق وصدا أصحابه عن الباطل وخدمته عن الظلم وتشريدكم عن الأعمال، فسعى في صرفه عن قضاء غرناطة" (20).

وعن طبيعة علاقته بالأمراء يقول ولده في التعريف: "كان هينا من

غير ضعف صلبا في الحق لا تأخذه في الله لومة لائم... وكان يلاطف
الأمراء فإن امتنعوا من الحق تقوى عليهم غير هيوب لهم مقداما عليهم
في صدهم عن الباطل" (21)

وحاصل الأمر ان عياضا كان يؤمن بشرعية الدولة المرابطية معتبرا
نفسه رجلا من رجالها متحالفا معها ومستبسلا في الذود عن حرمتها.
وقد وصل الرجل في ظل هذا الحكم رتبة لم يصلها أحد في وقته من
تقدير العامة والخاصة له وتبجيلهم إياه. وتعد فترة الحكم المرابطي
وخاصة فترة الأمن والاستقرار أيام حياته.

ب- الدولة الموحدية : (541-668/1147-1262) :

قامت الدعوة الموحدية على يد محمد بن تومرت (22) أيام أمير
المسلمين علي ابن تاشفين مناهضة للحكم المرابطي شعارها الامر
بالمعروف والنهي عن المنكر وإتقاد البلاد. وراح هذا الزعيم ينتقد
المرابطين في جميع ممارساتهم واعتقاداتهم مستغلا الوضع الاقتصادي
المتأزم الذي لزم البلاد منذ بداية القرن السادس للهجرة الثاني عشر
ميلاديا، والذي اجبر المرابطين على فرض ضرائب جديدة.

اتهم المهدي ابن تومرت السلطة بكونها أحدثت المغارم وفرضت
المكوس وأكلت السحت والحرام وفرضت على الناس ما لم يوجبه
الشرع. كما هاجم بشدة قسوة الجباة، ووصف المرابطين بـ "ذوي
اسياط مثل أذناب البقر (23) يضربون الناس ليست عند احد سواهم"
(24).

كما هاجم تساهلهم في تطبيق الشريعة إذ تغاضت الدولة عن بيع الخمر وهيأت أسباب المجون (25)، ولذلك أقدم أثناء إقامته بفاس على مهاجمة حوانيت الآلات الموسيقية بزقاق بزقالة من فاس، وكانت هذه الحوانيت مملوءة بالدفوف والقراقرز والمزامير والعيدان والروط والأربية والكيتارات وجميع اللهو. وتولى طلبته - بأمره - كسر هذه الآلات (26). كما ندد هذا الثائر بخروج أخت الأمير علي بن يوسف بن تاشفين سافرة واعتبر ذلك منافيا للأخلاق والدين (27).

وفي الجانب العقائدي كفر المهدي ابن تومرت المرابطين ونعتهم بالمجسمة وقام بحملة ضد الفقهاء الذين يتوقفون في التشابهات وأخذ يدرس التوحيد الكلامي القائم على التأويل.

ويبدو أن ابن تومرت يدرك شذوذ الإدراك متانة المذهب المالكي المرتكز الحكم المرابطي إذ لا يمكن تقويض هذا الحكم حتى يقوض أساسه ومعتمده. وبناء على ذلك وقف موقفا متصلبا من الفقهاء المالكية من أول وهلة، بل إنني لا أبالغ إذا قلت: إن ثورة الموحدين ثورة على الفقهاء بالأساس (28).

إنك تجده وهو ينتقد المذهب المالكي ورجاله يدعو إلى مذهب بديل هو مذهب الحق عنده، حملة من المشرق لما خرج في رحلته العلمية. ويلاحظ الدارس لهذا المذهب انه مزيج من معتقدات الشيعة والأشاعرة والظاهرية والمعتزلة والخوارج ولعل هذا التلفيق لم يقصد لغاية عقائدية إصلاحية بقدر ما قصد للسياسة وتقويض حكم المرابطين والاعتلاء

على السلطة.

على ان تاريخ العمل المنظم الموجه ضد المرابطين يعود إلى سنة (1121/515)، حين بايعه أنصاره في "تينمل" (29) من السوس وأولهم تلميذه عبد المؤمن بن علي. ثم تلقب بالمهدي وصرح بدعوى العصمة لنفسه سنة (1124/518) وفي سنة (1126/520) تواترت اخبار المهدي بمراكش وطاعت له الجبال كلها (30).

وبنجاحه في استمالة عدد كبير من القبائل - ولا سيما- المصامدة (31) الذين يحتلون اماكن خطيرة بالمغرب الأقصى، دخل في مواجهة مسلحة ضد المرابطين واستطاع ان يتوسع على حسابهم. وبوفاته سنة (1130-524) خلفه عبد المؤمن بن علي (32) الذي قضى على الحكم المرابطي نهائيا سنة (1146/542).

والحق أن المجتمع المغربي لم يكن ليستسيغ عقيدة المهدي وممارساته لولا مكره ودهائه وحنكته في استغلال الأوضاع التي يعيشها المجتمع المغربي ولا سيما طبقة العامة في أوائل القرن السادس من الهجرة - الثاني عشر ميلاديا.

وبناء عليه نستطيع أن ندرك الثورات المعادية للدعوة الموحدية التي خير أصحابها مقصد المهدي ابن تومرت ونواياه السياسية وعلموا خطر انتصاره وما ينجر عنه من تشتيت لوحدتهم المذهبية التي أسسها المرابطون ودافع عنها العلماء الأبرار امثال القاضي عياض.

هذا من الممكن ان نلخص اهم العوامل المساعدة على قيام الدولة

الموحدة في النقاط الآتية :

1- انغماس المرابطين في الترف والتأثر - إلى حد كبير - بالحياة الأندلسية المترفة.

2- مبالغة الأمير علي بن يوسف في التسامح مع الناقمين على الحكم المرابطي، وأمثلة لهذا التسامح، بالمناظرة التي دارت بين يدي أمير المسلمين علي بن يوسف بمراكش بين بعض الفقهاء وابن تومرت. ورغم انتقاداته الموجهة للأمير وتهمجه على السلطة في مقر الإمارة فإنه لم يمس بسوء، بل يحكي ابن خلكان أنه "لما سمع الملك كلامه ذرفت عيناه وأطرق حياء" (33) ولو حدث هذا في غير مجلس هذا الأمير لكان مصير ابن تومرت التنكيل والقتل.

3- تكتل ممالك قطالونية وأرغون وقشتالة وتوجيههم الضربات العنيفة ضد البلاد الإسلامية بالأندلس وما أدت إليه من استنزاف قوى المرابطين (34).

4- اضطراب المرابطين إلى فرض الضرائب الباهضة على الناس وغفلتهم عن الجباة المنحرفين الذين قسوا على الرعية وغذوا فيهم روح النعمة والثأر، وخاصة قبائل الجنوب.

5- تنكر أهل الأندلس للمرابطين ورفضهم مساعدتهم في أزماهم المالية والعسكرية (35).

6- استغلال ابن تومرت عصبية قبائل مصمودة ضد قبائل المرابطين الصنهاجية، "وما في طباعهم من خفة سفك عليهم" (36) رغم حسن

معاملة الأمراء المرابطين لهم وتجنب إثارتهم قدر الإمكان، منذ عهد زعيمهم الأول عبد الله بن ياسين (37).

7- شدة ذكاء ابن تومرت في استغلال الأحداث لصالحه، كمهاجمته للمرابطين والفقهاء لاحراقهم كتاب "الإحياء" للإمام الغزالي.

والحق أن هذه المسألة تتطلب بسطا يضيق المقام له، ولا أستطيع تجاوزها فخير لي توسط الأمر، وإيجاز القول فيها على ما يأتي.

إن إحراق كتاب "الإحياء" من قبل المرابطين، زمن علي بن يوسف بن تاشفين - وإن كان في ظاهره مصادرة للحريات - إلا أنه عمل استهدف الحفاظ على وحدة المجتمع في العقائد والعبادات - لا سيما - أن الكتاب حوى من التصوف وعلم الكلام ما من شأنه أن يعقد على المسلمين معتقداتهم ويفرق وحدتهم.

فكتاب "الإحياء" هو بالدرجة الأولى لكتاب المتصوفة، يسير على الفلسفة الكلامية التي يرفضها المالكية ويخشون استخدامه في استطاب العامة حيث تتحول إلى حركة معادية وقوية يمكنها تفويض الحكم القائم والوحدة المذهبية للمجتمع المغربي المتمثلة في المذهب المالكي.

ولهذا السبب يمكن أن نسوغ تضيق السلطة على زعماء المتصوفة أمثال ابن العريف وابن برجان والميورقي (38).

كما يمكن أن نسوغ كذلك إقدام السلطة على إحراق كتاب "الإحياء" بفتوى أجمع عليها فقهاء قرطبة وعلى رأسهم قاضي قضاة أبو عبد الله محمد بن حمدين سنة (1109/503) (39).

إنه من الصعب بمكان قبول صدق تحمس ابن تومرت لكتاب "الإحياء" وانتصاره له وجعل الإحراق قضية خطيرة هاجم بها المرابطين والفقهاء المالكين دون أن يكون هذا التحمس متبوعاً بأطماع سياسية تعود عليه بالفائدة. كما أنه من الصعب أن نعتقد بأن دافعه عقائدي وإن كتاب "الإحياء" مرشده ومنهاجه، وأنه يدافع عن الغزالي وآرائه. فالغزالي يتبرأ من تقتيل المسلمين وكذلك من القول بالعصمة، وقد أدلى بدلوه في هذه المسألة الأخيرة في كتابه "المنقذ من الضلال" (40)، فالعصمة عنده يختص بها الأنبياء والرسل أتباعاً لأهل السنة والجماعة، وابن تومرت يخالف هذه العقيدة فيدعي العصمة وينفي الاجتهاد لأن فيه الخطأ والصواب.

وهكذا أستطيع أن أسجل بأن ابن تومرت استنفذ كل طاقته في استخدام الأحداث لصالح دعوته، واستمسك بكل خيط يؤول على تقويض الحكم المرابطي وإقامة حكم مهدي على أنقاضه.

إن هذه العوامل وغيرها أسهمت في التعجيل بسقوط الدولة المرابطية، ودفعت الثائرين - أتباع المهدي ابن تومرت - إلى بلوغ مراميهم وتأسيس دولة الموحدين التي تمكنت من التوسع والانتشار حتى بلغت شمال إفريقيا إلى طرابلس فضلاً عن الأندلس.

علاقة القاضي عياض بالدولة الموحدية :

اعتبر القاضي عياض الدولة المرابطية دولة شرعية، تزدود عن حرمة الإسلام وتجاهد من أجل إعلاء كلمة الله، وقد سمع الرجل بجهاد عبد

الله بن ياسين الجزولي وعاصر انتصارات يوسف بن تاشفين على قوى الكفر والبغي وخبر سياسة علي بن يوسف المشتهر بالصلاح والإقبال على العلم، فضلاً عن أن هؤلاء الأمراء استمسكوا بالمذهب المالكي الذي يحبه القاضي ويدافع عنه بثقله (41).

وبناء على هذا رفض القاضي عياض قبول ثورة قامت على معارضة عقائد أهل السنة والسلف الصالح، بادعاء العصمة، وسفك دماء المسلمين بغير حق، كما رفض ثورة على المذهب المالكي الذي وحد المغرب ونشر الأمن والاستقرار في هذه الربوع طوال الحكم المرابطي.

وعلى هذا الأساس رفض الفقهاء والعلماء الأحرار - عامة - تأييد الثورة الموحدية منذ بدايتها. ويمثل القاضي عياض أروع صورة للعالم العامل الذي يقف في وجه الباطل، على الرغم من أنه كان يستطيع أن يتجنب المحن بمسايرته لمن قويت شوكته أو بالهجرة كما فعل أبو الوليد محمد بن خيرة (42) وغيره.

فالقاضي عياض يرى أنه لا حق للموحدين في الحكم وأن الدفاع عن البلاد ضد هؤلاء المتمردين واجب. وعلى هذا النحو نستطيع أن ندرك استبسال أهل سبتة في مقاومة عبد المؤمن بن علي إثر غزوته الطويلة سنة (1139/534) التي وصلت به إلى بلد القاضي قصد الاستحواذ عليها وإدخالها في طاعته .

لقد قاوم أهل سبتة بزعماء القاضي عياض وتديره الجيوش الموحدية وأبوا الخضوع والاستسلام مادام فيهم نفس المقاومة. وعن ثورة سبتة

على الموحدين وتمردوا عليهم، قال ابن خلدون : "واستمر عبد المؤمن على حاله، فنازل سبته وامتنعت عليه، وتولى دفاعه عنها القاضي عياض الشهير وكان رئيسها يومئذ بدينه ومنصبه" (43).

على أن تمرد أهل سبته على الموحدين لم يدم، وأن انتصار عبد المؤمن بن علي على جيوش تاشفين وفتح تلمسان وفاس واستفحال أمره أكرههم على التراجع واضطربهم على مبايعته في جملة من بايع من أمصار المغرب. قال ابن عذاري : "وفي هذه السنة (سنة أربعين) وصلت كتب أهل سبته بالسمع والطاعة والدخول في حزب الجماعة" (44).

والحق أن هذا الخضوع لا يعد مبايعة حقيقية، وإنما كان نتيجة الخوف من قسوة عبد المؤمن وشدة على المعارضين، ولا يخفى على أهل سبته بأنه "لما اشتد القتال على أهل وهران مات أكثرهم بالعطش إلى أن خرجوا على حكم البرابر الذين يسمون بالموحدين فقتلهم أجمعين كبارا وصغارا بعد ثلاثة أيام من مقتل تاشفين وذلك يوم عيد الفطر من سنة 539 هـ" (45).

فنحن نستطيع أن نتبين هذا الخضوع غير التلقائي من خلال تمرد أهل سبته بزعامة عياض حينما سمحت لهم الفرصة واختفت علة البيعة الأولى، وإذ لم يستسغ هؤلاء الأحرار طاعة من لم يتورع في سفك دماء المسلمين وتمزيق وحدتهم وإجبارهم على تقديس الأشخاص واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير.

قال محمد بن تاويت وهو يتحدث عن عقيدة الموحدين : "وجاء

مهدي الموحدين فصدّم أهل المغرب في أقدس ما لديهم وهي عقيدتهم السنية وسمّاهم مجسمين كافرين وقاتلهم قتال كفر، وحصر التوحيد في أصحابه وأتباعه وأقام حركته على دعامتين:

- عصمة الإمام وكان هو الإمام.

- وعلمه بالمغيبات وقد استفاد من كتاب الجفر الذي يتضمن علوم أهل البيت" (46).

إن مقاومة أهل سبّة هذه الثورة لم تكن مقتصرة عليهم، ويبدو أن هذه المقاومة كانت واسعة النطاق وشملت أجزاء كثيرة من المغرب، وإن دخولهم في الطاعة كان تحت سلطان الضغط والإرهاب لا المبادرة والإقناع.

وعلى هذا الأساس ندرك موقف القاضي عياض من الموحدين في مقاومتهم ثم بيعتهم ثم الانتقاض عليهم ثانية. وليس ذلك تذبذبا من عياض، فإنه الرجل المعروف بالخصافة والصلابة في الحق ينشده أينما كان.

وقد قام السلاوي بتفسير موقف عياض من الموحدين على ضوء الشريعة الإسلامية ونرى من الأهمية إيراد ذلك التفسير. قال: "واعلم أن ما صدر من القاضي عياض (رحمه الله) في جانب الموحدين، دليل على أنه كان يرى أن لا حق لهم في الأمر والإمامة وإنما هم متغلبون. وهذا الأمر لا خفاء فيه كما هو واضح، ولما كانت شوكة عبد المؤمن مازالت ضعيفة وتاشفين بن علي أمير الوقت لازال قائم العين امتنع القاضي عياض (رحمه الله) عن مبايعة عبد المؤمن ودافعه عن سبّة إذ لا

موجب لذلك لأن بيعة تاشفين في اعناقهم، وهو لا يزال حيا فلا يعدل عن بيعته إلى غيره بلا موجب... ولما قتل تاشفين وفتحت تلمسان وفاس وقويت شوكة عبد المؤمن بايعة القاضي عياض حينئذ وقبل صلته لأن من قويت شوكته وجبت طاعته.

ثم لما ضعف أمره ثانيا بسبب قيام المآسي وإجماع قبائل المغرب على التمسك بدعوته رجع القاضي بأهل سبتة عن بيعته إلى طاعة المرابطين الذين لهم الحق في الإمامة بطريق الأصالة، هذا ما كان ينقل عن المهدي من أنه غلبت نزعة خارجية عليه وأنه يقول بعصمة الإمام وذلك بدعة كما لا يخفى، فتكون إمامته وإمامة أتباعه مقدوحا فيها من هذه الحيثية. لكن حيث حصل التغلب والاستيلاء وجبت الطاعة فالحاصل أن ما فعله القاضي عياض أولا وثانيا وثالثا كله صواب وموافق للحكم الشرعي" (47).

أما عن العنف الذي بدر من أهل سبتة حيث "انقضوا على من كان بالقصبة من الموحدين حتى قتلوه وأوقدوا عليهم النار بالبرج الذي تحصنوا به وصلبوه" (48). فإن الظن بعياض الخير والصلاح وأنه بريء من تبعات هذه الأعمال التي يترفع عنها مثله وإنما هو من تسرع العامة إلى مجاوزة الحدود — لا سيما — أيام الفتن وذلك معروف من حالهم (49).

على أن مبايعة القاضي عياض لعبد المؤمن بن علي آخر الأمر لم تكن مصالحة حقيقية ولا عفوا صادقا من قبل الموحدين كما ذكر أبو عبد

الله محمد بن القاضي عياض في كتابه "التعريف" (50) وذلك ابن أبي زرع في "القرطاس" (51)، وإنما كانت مصالحة وعفوا في الظاهر يخفيان حذرا شديدا من القاضي عياض، ولذلك غرب (52) عن بلده سببة وكانت غربته مؤشرا لأفول نجم عياض، عالم المغرب. وسنفيض القول في مسألة العفو عندما نتعرض لوفاته.

الهوامش :

1- هو عبد الله بن ياسين بن مكو الجزولي المصمودي، رحل إلى الأندلس طلبا للعلم. كما موصوفا بالزهد والصلاح وحبه للجهاد، وهو مؤسس الدعوة المرابطية (ت 1059/451). = ترتيب المدارك : ط. وزارة الأوقاف. المغرب : 81/8.
ابن عذاري : البيان المغرب. تحقيق إحسان عباس. ط. بيروت : 8/4. الأعلام : ط. بيروت. 1990 : 114/4.

2- حسن ابراهيم : تاريخ الإعلام الصحافي والوثني... ط. الأولى. 1967 : 288/4.

3- م، ن : 311/4.

4- الخلل الموشية : مجهول. ط. الأولى. 1948/231. حسن محمود : قيام دولة المرابطين. مصر. ط. 1957 : ص 219.

6- = البيان المغرب : 25/4.

7- اختلط يوسف بن تاشفين مدينة مراكش سنة (1062/454) = ابن خلدون : كتاب العبر، بيروت ط. 1971. 184/1. السيد عبد العزيز سالم : المغرب العربي الكبير. بيروت. ط. 1981 : 702/2.

8- توفي يوسف بن تاشفين سنة (1106/500) وعاش تسعين سنة، ملك منها مدة خمسين سنة. = البيان المغرب : 412/3. ابن العماد : شذرات الذهب بيروت : 412/3.

9- عبد الواحد المكراشي : المعجب. القاهرة. ط. 1949 : ص 171.

10- تعد موقعة الزلاقة من أعظم المعارك في التاريخ الإسلامي. وقعت سنة (1086/479) وانتصر فيها يوسف بن تاشفين على ملك قشتالة ألفونس السادس وبهذا الانتصار ضمنت الأندلس إلى الدولة المرابطية ولقب ابن تاشفين بأمير المسلمين.

11- هز الدين أحمد موسى : النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي القاهرة. 1983 : ص 105.

- 12- المعجب : 177.
- 13- = ابن خلكان : وفيات الأعيان. بيروت. 1977: 51/5.
- 14- = كتاب العبر : 189/6. المعجب : 192.
- 15- = الحلل الموشية : 99.
- 16- = الضي : بغية الملتبس . القاهرة. ط. 1967: ص: 42.
- 17- وفيات الأعيان : 239/3.
- 18- عبد الله كنون : النبوغ المغربي . الرباط ص : 72.
- 19- ابن خاقان : فلاند العقبان. تحقيق محمد الطاهر ابن عاشور. الدار التونسية للنشر. 1990. ص: 266.
- 20- م، ن : 265.
- 21- القاضي عياض : الغنية . تحقيق محمد عبد الكريم. الدار العربية للكتاب. تونس - ليبيا . ط. 1978: ص: 234.
- 22- التعريف بالقاضي عياض : محمد بن عياض : تحقيق محمد بن شريفة. وزارة الأوقاف. المغرب ط 1982.
- 23- م، ن : 5.
- 24- هو محمد بن عبد الله بن تومرت، زعيم الثورة ضد المرابطين، ينسب إلى قبيلة المصامدة، من قبائل جبل السوس بالمغرب الأقصى. رحل إلى المشرق ثم عاد إلى المغرب وقام بقتال المرابطين. توفي بتمنمل سنة (1130/524). = وفيات الأعيان : 53/5. الأعلام : 228/6.
- 25- يشير إلى حديث : "إن طالت بك مدة، أو شكت أن ترى قوما يغدون في سخط الله ويروحون في لغته، في أيديهم مثل أذنان البقر". أخرجه مسلم في صحيحه : 2193/4. ك.الجنة باب "الجنة وصفة نعيمها". وأحمد في مستنده : 308/1.
- 26- محمد بن تومرت : أعز ما تطلب . الجزائر. ط. 1975: ص: 52.
- 27- = ابن أبي زرع الأنيس المطرب : الرباط 1973 ص : 173.
- 28- البيدق : أخبار المعهدي بن تومرت . تحقيق عبد الحميد حاجيات. الجزائر. ط. 1975: ص: 52.
- 29- السلاوي : الاستقصاء : 132/1. وفيات الأعيان : 45/5.
- 30- أخذ ابن تومرت بحرض أصحابه على قتال المرابطين قائلا لهم : "اقتلوا المحسنيين والبرابرة المنفسدين والفقهاء الماكرين" البيان المغرب 68/4.
- 31- تمنمل : موضع بجبال المغرب الأقصى. = ياقوت الحموي : معجم البلدان. بيروت : 69/2.

- 32- = البيان المغرب : 68/4.
- 33- بلغت طاعة المصامدة لابن تومرت إلى حد، أنه لو أمر أحدهم بقتل ابنه أو أبيه لبادر إلى ذلك من غير إبطاء المعجب. ص : 194.
- 34- هو عبد المؤمن بن علي بن مخلوف الكومي، مؤسس الدولة الموحدية، وصاحب المهيدي طوال دعوته. بايعه أتباعه بعد وفاة ابن تومرت، واستطاع الانتصار على المرابطين وتكوين دولة عاتية خضعت لها الأندلس والجزائر وإفريقية. مات بسلا سنة (1163/558). = وفيات الأعيان 237/3. الأعلام : 170/4.
- 35- وفيات الأعيان : 50/5.
- 36- = المغرب الكبير : 740/2.
- 37- م، ن : 741/2.
- 38- المعجب : 191.
- 39- تاريخ الإسلام السياسي : 286/4.
- 40- = ابن الزيات : التشريف : 96.
- 41- = ابن القطان : نظم الجمان. تحقيق محمود علي مكي. تطوان : ص 14.
- 42- المنقذ من الضلال : هفوا الخلدوت. مصر. ط. الخامسة. ص : 114.
- 43- = ترتيب المدارك : 67/1.
- 44- هو محمد بن عبد الله بن خيرة القرطبي. كان من جلة العلماء الحفاظ مشاركان في شتى المعارف اختار المحجرة من بلده لما قامت الفتننة. (ت-1156/551). = ابن بشكوال : الصلة. مصر. ط. 1966. ص : 593.
- 45- كتاب العبر : 230/6.
- 46- البيان المغرب: ص 17.
- 47- م، ن : 17.
- 48- ترتيب المدارك : تحقيق محمد بن تاويت. الرباط. مقدمة التحقيق. ص: (يز).
- 49- الاستقصاء : 103/2.
- 50- البيان المغرب: ص 28-32.
- 51- الاستقصاء : 103/2.
- 52- ص : 12.

حوار مع "الظاهرة" سليمان بن يوسف

صاحب العشرين إصدارا



حاوره الباحث: محمد الرزقي

اخترنا في هذه العدد أن نحاور الإعلامي والروائي

سليمان بن يوسف، والذي يعتبر حالة استثنائية في

المشهد الثقافي التونسي، إذ صدر للرجل أكثر من عشرين عنوانا،

متوزعة بين الرواية والشعر والدراسة، فضلا عن سلسلته المهمة بالبيئة.

وكل هذه الإصدارات نشرت في عشرية واحدة، رغم أن صاحب

هذه الإصدارات لم يتجاوز عقده الرابع، مما يحول الكاتب سليمان بن

يوسف إلى "ظاهرة" جديدة بالمتابعة والدراسة، خاصة أنه لم يكتف

بمجال القلم، بل كانت له تجارب ناجحة في التنشيط الإذاعي

والتلفزي.

فما السر وراء هذا الإنتاج الغزير؟ وكيف تمكن من نشر جميع هذه

العناوين؟ وهل توجد جهة معينة تقف وراءه وتدعمه؟ وكيف استطاع

تجاوز مشاكل التوزيع؟ للإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها، ينطلق حوارنا

مع ضيفنا العزيز سليمان بن يوسف، والذي رحب بإجراء هذا الحوار

وفتح لنا أبواب بيته وقلبه، وأول سؤال نطرحه عليه:

* - كيف يقدم سليمان بن يوسف نفسه لمن لا يعرفه؟

شاب تونسي من مواليد حلق الوادي، وأصيل جزيرة جربة وليد عائلة متوسطة، درست علم الاجتماع، ومارست الصحافة وأحببت الأدب، زاولت الكتابة الصحفية - صحفي محترف بصحيفة الحرية منذ سنة 1987 وقدمت برامج إذاعية ومنوعات موجهة للشباب خاصة من 1988 إلى 1994، وقدمت بعض البرامج التلفزيونية وخاصة سنوات 1990، 1993 1999/2000. وأصدرت 28 كتابا ولي في انتظار النشر ثلاثة أعمال، أب لثلاث أبناء اثنان منهما في الجامعة.

* - هل أنت روائي أو ناقد أم ماذا بالضبط؟

إني حامل لأفكار وهواجس وخواطر أعمل على تضمينها الأوعية المناسبة لها والتي أشعر أنها الأقدر على حملها للناس، إذ تعلمت الرسم والعزف، ومثلت مشهدا في مسرحية مدرسية، وكتبت سيناريو أو بالأحرى مشروع حوار مسلسل لم ير النور، فلا أجد حرجا في تنويع القنوات والتقنيات، أعتقد أن الأهم هو المضمون.. تعددت الأشكال واللب واحد.

* - هل اهتمامك بمجالات متنوعة دليل على الموهبة، أم أنك مازلت

تجرب ولم تعرف طريقك بعد؟

أعتقد أن الإنسان يعيش كل حياته يجرب يتعلم، ليس من مثقف

ومبدع متكامل من قال علمت فقد انتهى، إن كان هنالك بعض الموهبة فمن الله، وعموما الكتابة صبر ومعاناة ورسالة وسير واثق من أجل النفاذ إلى قلوب الناس وبصائرهم لا أعينهم وأبصارهم.

*- ما هي أهم إصداراتك، وكيف استطعت أن تصدر هذا الكم الهائل من عناوين؟

أفضل أعمالي، وهي كأولادي، كلمات للحياة، وكيف أنسى والذي أهديته لفلسطين، كذلك أبوس الأرض الذي كتبته أيام وقصف غزة، وهو عمل شعري مشترك مع الشاعر الفلسطيني عبد الحكيم أبو جاموس وهو مثقف ومناضل بالكلمة. كما أحببت رواياتي الأربعة التي تحكي عانيت كثيرا في توليدها، وكان مخاضا عسيرا ساعدني على الخروج منه الروائي الصديق حسن بن عثمان.. وبكل بساطة أكتب كما أنفوس، فلا أضيع وقتا في غير القراءة أو الكتابة، لذا أعمالي غير المنشورة كثيرة.. وأقول لك أنني أصرت على الإصدار رغم خذلان وجحود الكثيرين، وعدم تعاون أول من توجهت لهم للمساعدة على النشر، وكذلك لرد عل البعض من ذوي القربى ممن استكثروا علي أن أكون صحفيا "شاعرا" أقدم في الإذاعة والتلفزة وأكتب مسلسلات... والحال أن وزراء ورؤساء دول في العالم يقدمون مثل هذه الأعمال... وفي تونس سيادة الرئيس شجع المبدعين، من العمال والموظفين ومنحهم الكثير

من الحوافز...

*-بصدق من الذي يدعمك؟

يدعمني الحب العفوي الصادق من الناس اهتمام بعض الأحبة أهم عندي من أي دعم مادي، لألقاه في غالب الأحيان، ناهيك أنني أصدرت خلال سنتي 2003 و2009، 14 إصدارا لم تقتن منها نسخة واحدة من قبل الهياكل المعنية.

*-كيف استطعت تجاوز مشاكل النشر والتوزيع؟

بالاعتماد على الذات وبتقليص كمية السحب، للأسف الشديد، وأعتقد أن الإرادة مع بعض التعاون من الجهات التي تقوم بالطبع يسر هذه العملية وينهي تلك الصعاب، أما التوزيع، فهي أم المشاكل، أكاد أوزع بنفسني على المكتبات وكذلك مع مورعي الصحف.

*-هل الكتابة عندك هواية أم حرفة؟

هي ولادة مستمرة، وقد تندرج في خانة العمل الصحفي، ولكنها في السياق الأدبي هواية، أنا لم أكتب قط للارتزاق، وكذلك لم أتوقف عن الكتابة عندما لم تنل بعض أعمالي المرشحة لمسابقات أية جائزة، باستثناء جائزة نعمان الأدبية اللبنانية سنة 2009، وهي معنوية، أعتقد أن الجانبين يتناغمان إذا كان المبدع أو الأديب واعيا وثابتا على فكره. أنا أحب الكتابة وأهواها، حب الرضيع لأمه... ورغم كثرة مواليدي

الأدبية لأعتقد أنني احترفت ذاك الهوى.

*- ماهي أحب إصداراتك إلى قلبك؟

أبوس الأرض، وعبير الدفلى، أهواك حلق الوادي وجربة ما خفي
كان أجمل كيف أنسى... وكلمات للحياة، والبحث العلمي، والمشهد
الجمعياتي...

*- لماذا هذه الإصدارات بالذات؟

هي الأقرب إلى ذاتي، إلا أن هذه الأعمال نفائات صادقة جدا وأشعر
أنني حين كتبتها أهديت الناس شيئا مني ولذلك كان صداها عجيبا...
وكل كتاب في حد ذاته قصة وحكاية ومغامرة فيها مزيج من المראה
والصبر والعناء الأدبي والمادي... روايات عبير الدفلى وأهواك حلق
الوادي تروي قصة شبلي وطفولتي الأولى في حلق الوادي عاصمة البشر
ومدينة التسامح العالمي، وقد سعدت مؤخرا باتصال سيدة من فرنسا
تطلب اقتناء الرواية، ولكنني سعيد بنجاح "كلمات للحياة" الذي جمعي
بالعملاق الكركاتوريسست علي عبيد، والبحث العلمي التنموي، الذي
جاء ثمرة رحلتي الصحفية في عدد هام من مراكز ومعاهد البحث
العلمي في تونس، والمشهد الجمعياتي الذي أردته تحية واعترافا
للمناضلين المتطوعين في الحقل الجمعياتي الذين تعرفت عليهم وأنا
أحاورهم واستضيفهم في فقرة يومية تلفزيونية خلال عامين "لكل الناس"

أما أبوس الأرض فقد كتبته أيام ملحمة غزة، صبرا وألما وتحفزا لتصرة الأعبة في فلسطين.

*-أقف مع أحد إصداراتك، والذي شديني، وهو رواية "أهواك حلق الوادي"، وأبدأ من العنوان ما سرّ تعلقك بهذا المكان؟

أنا من مواليدده، وأنا رغم الترحال، حيث سكنت 9 مساكن، أعود كل أسبوع لهذا الوطن المتفرد، الذي لا يعلم سره وكنه مودته إلا من تورط بالإقامة فيه، فما بالك بمن ولد في بيت بحلق الوادي، وعاش تفاصيل الأيام الرائعة خلال السبعينات، مع الأهل والأصدقاء ومع الآخرين... هناك في حلق الوادي لي في كل حبة رمل وحجارة وزقاق وباب ومتجر وموقع ذكرى جميلة أو مرة وأنا أعاني من ذاكرة شديدة، ولي أيضا ما شكاه الشابي... الشقي الشقي من كان مثلي في حساسيتي ورقة نفسي...

*-ألا تشاطرني الرأي أنك كتبت هذه الرواية بعين العاشق لهذا المكان، فحاولت إخفاء عيوبه؟

بالعكس لقد أشرت للعيوب الكامنة في الوله المفرط الذي بدا على البعض، وجاوز أحيانا ضوابط الطقوس وقانون الاحتفال... ولكن الصورة الأحق بالإبراز على تلك المثالب الساكنة ثنايا الحكاية...

*-هل حلق الوادي دون عيوب؟

على العكس... فيه عيوب كثيرة لكني متفائل أنظر دوما إلى الجمال،
إني أجول في المدينة كل أسبوع وأتحسر على أشياء ضاعت وعلى
تحولات، تبدو في اتجاه التحديث، ولكنها تطمس المعالم الأصلية
والصورة الأولى... مثلا جامع سيدي الشريف...

*- أليس في هذا التحيز للمكان، قتلا للرواية وإغراقها في حيز جغرافي
ونفسي ضيق؟

هذا صحيح، ولذلك بادرت بنشر عبر الدفلى التي لم أحدد فيها
المكان، لكني لم أطق صبرا وكشفت كل شيء في أهواك حلق
الوادي... علما أنني لم أبج بكل شيء... وعموما أناؤمن بأن أروع
الأدب أصدق... وربما غلبتني نزعة الصحفي المطلوب لتحديد الـ "أين"
والوسيلولوجي المطالب بالبحث في كل الشايات وتشريح الكيان بحثا عن
الخفي والمسكوت عنه... وانتسابي لهما أمل.

*- ألا تشاطرنى الرأي أنك تعسفت في اختيار عناوين بعض فصول هذه
الرواية، مثل الفصل الأول "كينونة الفجر الوليد" رغم أن محتوى الفصل
أبسط من أن يحمل هذا العنوان؟

هذا صحيح، لقد ضبطتني متلبسا بحلم أكبر من حدودي.. وهو
ناجم عن مبادرتي لاختيار العنوان، وإعلان مشروع النص قبل إنجازهِ،
وهي هفوة لا تغتفر في الصحافة على الأقل فالعنوان ينجز بعد استكمال

التحرير .

*-نلاحظ أن القضية الفلسطينية كانت حاضرة بقوة في ثنايا الرواية،

ككيف تتصور الحل العملي لهذا الجرح الدامي؟

لا حل إلا بما هو عادل ومنصف للجميع، لا يمكن أن يحسم النزاع

وينهى الصراع دون انسحاب المحتل من الأرض التي اغتصبها ويعاد الحق

لأهله بالسلم أو بالقوة.

*-نغلق هذا القوس الذي فتحناه حول رواية "أهواك حلق الوادي"،

ونسألك عن سرّ اهتمامك بمجال البيئة، خاصة أننا نعلم أنك الملحق

الصحفي لوزارة البيئة.

البيئة تسكنني منذ نعومة أظفاري ولي خصوص قصصية ومحاولات أيام

الدراسة في هذا السياق، ولذلك لم يكن غريبا أن تكون أولى اهتماماتي

الصحفية في الكتابة والإذاعة والتلفزة حول البيئة.. وأنا مثيلا شاركت

في تقديم متنوعة بيئية تلفزيونية مباشرة، كان ينتظر تقديمها من طرف

الصديق الراحل نجيب الخطاب، في جوان 1990 في يوم البيئة لمنصف

بسباس، ولم تكن هنالك وزارة للبيئة... أنا أعتقد أن الكتابة في البيئة

خدمة للناس وإصلاح في الأرض ومحاولة لتوظيف ملكات ثقافية

وإعلامية في اتجاه الأفضل..

*-ماهي منشوراتك في مجال البيئة؟

ضميرنا البيئي 1 و 2 و 3، وكذلك بعض الخواطر في "شهادات وخواطر" قبيل قمة الأرض الثانية بجوهانسبورغ 2002.

*- ماهي الإضافات التي حققتها في هذا المجال أم أنّ الأمر لا يعدو أن يكون أداء وظيفيا؟

لم يكن أداء وظيفيا ولم أكلف بذلك، وطبعت الأعمال على نفقتي، ولكني حاولت أن أستطلع مدى اهتمام الجمعيات والإعلاميين والخبراء والمثقفين وأن أحرك فيهم أشياء لمزيد دعم الاهتمام بمسألة البيئة.

*- لماذا توقف نشاطك في الإذاعة والتلفزة؟

لسبب موضوعي، يتصل بحجم التزاماتي المهنية، في ديوان وزارة، وتعذر تنقلي للإذاعة لإنجاز اللازم لتنفيذ البرامج الإذاعية والتلفزية،
<http://Archivebeta.Sakhril.com>
لخوفي من عدم تقاسم شيء يضيف لما قدمت.

*- ماهي الإصدارات القادمة لسليمان بن يوسف؟

المفترض أن تكون رواية بعنوان نرجس أو خيوط المس، عشاق الوطن/خواطر.

*- هل يحس سليمان بن يوسف أنه لم يلق حظه من الناحية الإعلامية والنقدية؟

إلى حد ما، وعموما، أنا أؤمن أن الحياة متوازنة، وأن المرء لا بد ملاق حظه هنا أو هناك، فانا لم ألق حظي إلى حين، ربما هناك من لم

يؤمن بي في موقع ما، لكنني أثبتت جدارتي وسمعت من نقل لي أنه أبدي إعجابا بأعمالي التي لم يساعدني على نشرها... أنا محظوظ جدا بهذه اللفتة، وبتشجيع العديد من الأصدقاء الأدباء والنقاد، وكذلك الجامعيين، على غرار



الصديق الدكتور الباحث الاجتماعي عادل بالكحلة الذي أعد دراسة في سوسيولوجيا الأدب عن رواياتي الثلاث.

*- كيف تقيم المشهد الثقافي والإعلامي؟

أرجو له مزيدا من التوسع والتعدد، وأن يكرس تعامل أكثر إيجابية

وانفتاحا من الساهرين على الحقل مع الآخرين من غير الأسماء الكلاسيكية.. وعموما هنالك بشائر وإرهاصات لمُد ثقافي إعلامي من شأنه أن يضيف الكثير ويضفي على هذا المشهد رونقا آخر...

وفي الختام لا يسعنا إلا أن نشكر الإعلامي والروائي الأستاذ سليمان بن يوسف على رحابة صدره، وحسن تخلصه من الفخاخ التي نصبت له، على أمل أن نلقاه في إصدارات جديدة، ونتمنى له المزيد من التوفيق والإشعاع، فأمثاله أقل من القليل على الساحة الثقافية، سواء من جهة غزارة الإنتاج أو رفعة الأخلاق.

الإنسان ذلك الأمّي

مصطلح وتعريفات

بقلم: الأستاذ عبد الكريم الخلصي

ظل البحث في هوية الإنسان وطبيعته موضع اهتمام وبحث على مر التاريخ فتعددت تعريفاته الحديثة من: حيوان ناطق إلى ذكي إلى تعريفات بالإضافة على غرار تعريف "الأكسيس كاريل" "الإنسان ذلك المجهول" إلى تعريف لعادل العوا "الإنسان ذلك المعلوم" ولكن في إطار الثورة المعرفية وتكنولوجيا الاتصال سار الأمّي من ليس فقط من لا يعرف القراءة والكتابة ولا الأميّة بالمعنى الحضاري فقط بل الأمّي من لا يقدر على التعامل مع الوسائل الاتصالية الحديثة ونعني أساسا الأميّة الرقمية.

أما عن مفهوم كلمة "أمّي" فقد أحاطها الكثير من اللبس والغموض لارتباطها بالحالة الإنسانية المتغيرة من عصر إلى آخر فقد وردت هذه العبارة في القرآن الكريم تحت تفسيرات ثلاثة:

1- هو غير المتعلم وغير العارف بالخط والكتابة إذ جاء القرآن وفي مكة لا يزيد عدد الكتاب والقراء عن 17 فردا وهي كلمة منسوبة إلى "الأم" فالأمّي هو من بقي على حال ولدته أمّه لا يقرأ ولا يكتب ويقال الأمّي من كان على شاكلة أكثرية الناس على غرار "العامي"

الذي هو على شاكلة عامة الناس كما ورد ذلك كلمة "أم" بـ: "مجمع البيان" ذيل الآية 78 من سورة البقرة.

2- ينسب الأمي إلى (أم القرى) مكة وقد ذكر هذا الاحتمال في بعض الكتب القديمة، كما يقال إن للكلمة جذرا إسرائيليا وعليه فلا معنى للنسبة لعنوان وضعي لكون كل نقطة تشكل محورا، فيقال لها أم القرى أم المدائن أو أم المداشر... بل أطلقت على أناس لم يكونوا مكين كما في الآية 20 من سورة آل عمران "وقل للذين أوتوا الكتاب والأمين أسلمتم" وعليه فإنها تطلق في عهد الرسالة على العرب غير التابعين لكتاب سماوي، وقد أطلقت الكلمة على عوام اليهود الذين لا يعرفون شيئا رغم كونهم أهل كتاب "ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني" سورة البقرة الآية 78. هؤلاء لم يكونوا من أهل مكة بل أغلبهم كانوا يسكنون المدينة وأطرافها، فالقواعد الأدبية تقتضي أن يقال "قروي" لا "أمي" لو كانت الكلمة مشتقة من أم القرى حسب قاعدة النسبة في علم الصرف.

3- المشركون العرب الذين لم يكونوا يتبعون كتابا سماويا كما جاء في "مجمع البيان" في ذيل الآية 20 من سورة آل عمران التي تجعل الأميين في قبال أهل الكتاب: "وقل للذين أوتوا الكتاب والأمين" وقد ذهب إلى تأييد هذا المعنى عبد الله بن عباس والطبرسي صاحب "مجمع البيان" والزمخشري في "الكشاف" والرازي و... إن هذا المعنى لا يشكل معنى مستقلا بمعنى أنه لا يسمى كل من لا يتبعون كتابا

سماويا بـ "الأميين" وإن كانوا عارفين عالمين فقد أطلقت على العرب لجهلهم بالقراءة والكتابة وعليه فإن استعمال هذه الكلمة بصيغة الجمع تطلق على مشركي العرب وحين تستعمل بنحو المفرد تطلق على النبي صلى الله عليه وسلم لعدم إطلاعهم على الخط وكونه من أهل مكة.

إن كلمة الأمي لا تطلق أساساً على الوليد وإنما على الكبار الذين بقوا على الحالة التي ولدتم فيها فإطلاقها كان من باب العدم والملكة كما اصطلاح عليه علماء المنطق فلا يسمى أمياً ألا من كان بإمكانه التعلم ولم يتعلم.

مهما كانت التفسيرات القديمة حول هذا المصطلح فإنه لا يخرج عن معنى (أم) و(أمة) وهو ما يفيد البقاء على الحالة الأولى بل جاء هذا المعنى في "بحار الأنوار" جزء 13 ص 119 عن رواية عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول فيها "نحن أمة أمة لا نقرأ ولا نكتب" والحال أن النبي ومن ورائه الأمة أمرت بالقراءة "اقرأ باسم ربك الذي خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم..." أتبع هذا الأمر بقسم غليظ بالقلم أداة العلم مهما تطورت وسائله.

هذا وقد جاء في لسان العرب لابن منظور في الصفحة 31 من المجلد السابع: "والأمي الذي لا يكتب. قال الزجاج 'الأمي الذي على خلقه الأمة لم يتعلم الكتاب فهو على جبلته، وفي التثريب 'ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني' قال أبو إسحاق 'معنى الأمي المنسوب إلى ما عليه جبلته أمه أي لا يكتب فهو أمي لأن الكتابة هي مكتسبة فكأنه

نسب إلى ما يولد عليه أي على ما ولدته أمه عليه وكانت الكتابة في العرب من أهل الطائف تعلموها عن رجل من أهل الحيرة وأخذها أهل الحيرة عن أهل الانبهار وفي الحديث "إنا أمة أمية لا تكتب ولا تحسب" أي أنهم على أصل ولادة أمهاتهم لم يتعلموا كتابة ولا حساباً، كما تطلق كلمة الأمي على العبي الجاني القليل الكلام وقد قال عذافر الكندي:

ولا أعود بعدها كرياً أمارس الكهلة والصبي

والعزب المنفقه الأمي

قيل له أمي لأنه على ما ولدته أمه عليه من قلة الكلام وعجمة اللسان وقيل لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الأمي لأن أمة العرب لم تكتب ولا تقرأ المكتوب وكانت أمية النبي هي إحدى آياته المعجزة لأنه تلا عليهم كتاب الله منطوقاً تارة بعد أخرى بالعلم الذي أنزل عليهم دون أن يغير أو يبدل ألفاظه وهو ما لا نجده عند خطباء العرب الذين إذا ارتحلوا خطبة وأعادوها زادوا فيها وانقصوا فجاءت الآية التي تباين بينه وبينهم "وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون الذين كفروا".

إذا لا تعدوا التعريفات السابقة للأمية عن كونها جدية محدودة تدور كلها في معنى التعريف التقليدي الذي لا يأخذ بعين الاعتبار المتغير التاريخي والاجتماعي والمعرفي ولا يغطي خصائص الإنسان وحاجاته واشباعاته في ظل التطور الحداثي والثورة المعرفية الأخيرة.

لئن بحثنا في تاريخية مصطلح الأمية من منظور الثقافة العربية الإسلامية فإن اكتمال الصورة يقتضي البحث في تاريخية مصطلح تعليم الكبار ذو

الأصل اليوناني وعلاقته بالإندراغوجيا المشتقة من أصل كلمة (rees Andragos) . بمعنى الرجل في معني الكبير وعبارة (Agogos) . بمعنى الدليل ، كل ذلك في مقابل البيداغوجيا فن وطرائق تدريس الصغار .

إن مصطلح الإندراغوجيا تم استخدامه لأول مرة من جانب أستاذ اللغة الألمانية الكسندر كاب (Alexander Kapp) سنة 1833 حين أراد وصف نظرية أفلاطون التربوية ، فيما غاب هذا المصطلح بعده لحوالي قرن من الزمان بعد تدخل الفيلسوف الألماني " فريديريش هاربرت (johan friedrich herbart) لمنع استعماله إلا أننا نجد صدى لهذا المصطلح في سنة 1921 عند عالم الاجتماع الألماني "يوجن روسيترستوك" (Eugen Rozenstock) الذي رأى أن تعليم الكبار يقتضي مدرسين وطرائق وفلسفة خاصة به .

بعد نهاية الحرب العالمية الأولى ظهرت في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية أول موجة من الأفكار والآراء حول خصوصية طرائق تدريس الكبار فظهر اتجاهان للبحث في الموضوع سنة 1926 بتأسيس الجمعية الأمريكية لتعليم الكبار (American association for adult education) .

➤ التيار الأول: يمثلها ادوارد.ل. توريندايك (Edward. L. Thorndike) الذي اهتم بعوامل تعليم الكبار لأسباب نشوة الاهتمام به ورأى أنهما مجرد افتراضات ، فمن خلال التجارب العلمية حول الكبار استفيد أنهم قادرون على التعلم وأن مركز اهتماماتهم وخصوصياتهم تختلف عن الصغار .

➤ التيار الثاني: يرى ضرورة توسعة مجال المعارف من خلال البحث والخبرة لاكتشاف كيفية تعلّم الكبار وقد تزعّم (Edward. Lindeman C) هذه الحركة متأثراً بصورة مباشرة بجون ديوي (learning by doing) وهكذا أسس (Edward. Lindeman.) لطريقة منهجية لتعليم الكبار على أن:

*تعليم الكبار يقوم على مجموع الوضعيات والأحوال لا البرامج كما في الأساليب البيداغوجية التقليدية حيث أن الفاعلين الأساسيين: البرامج والمدرسين فيما يكون التلاميذ عناصر ثانوية ليس لهم إلا تقبل المنهج المرسوم.

*منهج تكوين الدارسين الكبار "يقوم على احتياجتهم ومراكز اهتمامهم". مجالات اهتمام الكبار متنوعة منصبّة على مجال العمل والترفيه والحياة العائلية وجماعة الانتماء ونحوها... وهو ما يقتضي منه مجهودات إضافية للتأقلم، وهذه نقطة البداية للكبير لتطبيق المنهج الدراسي.

*خبرة الدارس هي الكلمة المفتاح للدارس المتعلم فإذا كان التعلم هو الحياة فإن الحياة هي مصدر التعلم.

Edward.C. Lindeman) 1926 The
meaning of adult education P.8-10

إن نظرية ليندمان حول تعليم الكبار تبلورت على أساس جملة من البحوث التي قام بها ما بعد وأهم أسسها كالاتي:

1) الحاجة إلى المعرفة: إن الكبار يستعدون للتكوّن لما يكتشفون حاجاتهم واهتماماتهم وإشباعها، فنقطة الانطلاق يجب أن تكون دراسة الاحتياجات ومراكز الاهتمام في كل عملية تكوين فالكبار في حاجة إلى

معرفة لماذا يجب عليهم معرفة أشياء قبل مباشرة التكون؟ إن الواجب الأول للمدرس مساعدة الدارس بتبصيره بمدى حاجته للتعلم ليكتشف الفرق بين واقعه الحالي وما يأمل بلوغه وهو ما يحدد له أهدافه وإنجاز مخطط أعماله.

(2) وعي وإدراك الذات عند المتعلم: يرغب الكبار بعمق في تحديد ذواتهم بما يعني إن دور المدرس هو تحديد ثمثيات البحث مجالها التعاقدي والتباحثي بين الدارسين والمدرس أكثر منه بثًا لمعارف متبوعة بتقييم فالكبار في حاجة إلى الشعور بالمسؤولية على اختياراتهم وقراراتهم وحياتهم وحين يشعرون بالوعي تتطور بداخلهم حاجة لأن يعاملوا من الآخرين كأفراد قادرين على قيادة أنفسهم وتدبير أمورهم، رافضين فرض الغير إراداته عليهم رغم كون هؤلاء الكبار وفي حالة التمدرس يجدون نفس ردود الفعل التي كانها عليها وهم أطفال لسقطوا في حالة اللااستقلالية وإن الخطأ هو تصور أن تلك الحالة تتوافق مع حاجة حقيقية وإن المدرس يرد الفعل بمعاملتهم كأطفال وهذا خطأ يولد شعورا بالصراع عند الكبير، إنه صراع نموذج عقلائي (الدارس كائن تابع) والحاجات النفسية والوعي من عدمه بقيادة الذات ففي أغلب الحالات يكون الكبير فريسة لهذا النوع من الصراع الداخلي فيحاول الهروب إلى الحالة الأصلية التي تترجم ترك التكون.

(3) دورة الخبرة لدى الدارس: تعتبر الخبرة أكبر العوامل المؤثرة لدى الدارس الكبير في عملية التعلم وهو ما يوجب أخذ ذلك في الاعتبار عند مباشرة الدارسين لعملية التعلم لكون كل دارس يأتي إلى الفصل مزودا بخبراته السابقة وتصوراتهِ الخصوصية، فالفروقات الفردية تظهر أكثر حضورا لدى مجموعات الكبار دون مجموعات الصغار، فالمجموعات أكثر

تنوعاً سواء على مستوى الفروقات الثقافية أو طرق التعلم والتنشيط والحاجيات ومجالات الاهتمام والأهداف، وهذا ما يعطي المجموعة ثراء الخصوصية كل دارس. إن كل هذا يسهل التفاعلات الإيجابية بين المشاركين... وطرائق حل المشكلات، وهكذا يعرف الكبير خبرته فالمتروك عنده أو غير متوقع منه ينتهي به إلى الرفض ليس بسبب خبرته الخاصة ولكن بسبب كل مكونات الشخصية، الاختلافات في الشخصية تتجذر مع التقدم في العمر... إن كل هذه العوامل تدعونا إلى أخذ كل ذلك في الاعتبار أثناء عملية التعليم بتنويع الطرائق والتوقيت والأماكن وأنساق التعلم.

4) الرغبة في التعلم: تتمركز طريقة تدريس الكبار حول الحقيقة والواقعية ولهذا السبب يجب أن تكون الموضوعات-موضوع الدراسة- وضعيات حقيقية إذ من الحكمة تفحص ما إذا كانت المعارف المتوقعة تحصلها تتوافق مع الحاجة وتعبر عنها.

5) توجيه عملية التعلم: إذا كانت عملية التعلم لدى الأطفال والمراهقين موجهة نحو برنامج تعليمي ما فإن الدارسين الكبار يوجه اهتمامهم التعليمي حول الحياة (باتجاه موضوع ما أو مسألة ما) فهم مهينون لتوظيف طاقاتهم للتعلم إذا كانوا يتوقعون أن ذلك سيعينهم على اقتحام موضوعات ما وإيجاد الحلول المناسبة لما يعترضهم في حياتهم اليومية من مشكلات.

إن التبريرات والتعليقات في ذلك أنه إذا كان للكبار حساسية تجاه تبريرات خارجية (العمل الجيد، الترقيات، الأجور...) تعد ضغوطاً داخلية

فهي أكبر عوامل التبرير، كما نجد كذلك الرغبة في تلبية الاشباع
الداخلية وتقدير الذات ونوعية الحياة...

CIEP SERVICES 2005(cellules "Andragogie" 7-19 Novembre
2005. France)

"الكلمة المكتوبة هي كلمة السر التي تفتح كل أبواب الحريات، القراءة
والكتابة، هما ميلادنا الثاني في هذه الحياة، وحين نحققهما نعيش حياتنا
مرتين

فرانسوا نور ساير في "رسائل الحياة" اليونسكو 1991.

إن ميلاد مهارة القراءة والكتابة ظهر في بلاد الرافدين حوالي 3100 قبل
الميلاد تحت مسمى "الكتابة المسمارية" وهي عبارة عن علامات ورموز
ترسم على ألواح من الطين تكتب بالآلة تشبه الإسفين وكانت التجارة أم
الاختراع كما يقال بالنسبة لغاية تدوين سجلات الشحنات التجارية وفي
نفس الوقت تقريبا بدأ ظهور الكتابة الهيروغليفية لدى المصريين القدامى في
ما وضع سكان شبه جزيرة سيناء أول الحروف الساكنة دون استخدام
الحروف المتحركة التي أضافها الإغريق في ما بعد، فكان تطور الكتابة عبر
الحروف... وفي الصين حوالي سنة 2700 ق.م ظهر نظام الكتابة الصينية
من خلال استخدام الرموز والعلامات وتدوين الكلمة في صورة رمز.
وتوازيا مع ظهور الكتابة ظهرت الأرقام على يد علماء هنود وأبتكر
الصفري(0) والخانات....

أما وقد تفصلنا مدة أكثر من 5000 سنة عن اكتشاف الكتابة فإن
الأميين بنسب مخيفة ومفرعة بالنسبة للعالم الثالث ((فالأميون في العالم

العربي يناهزون الـ "60.000.000 الستين مليون أمي سنة 2009) حسب وثيقة المؤتمر الإقليمي لمحو الأمية وتعليم الكبار المنعقد في تونس في جانفي 2009 تمهيدا للمؤتمر العالمي لتعليم الكبار في ماي 2009* بالبرازيل، والحال أننا أمة أمرت بالقراءة منذ أكثر من 14 قرنا، يعني أن هذا العدد الهائل من البشرية لا يزال يعيش زمن ما قبل ميلاد الكتابة والحساب دونما استفادة من العبقورية البشرية.

لقد أصبح مصطلح "محو الأمية" مصطلحا شائعا في كل البيئات مرتبطا أساسا إلى زمن غير بعيد بتعلم مهارة القراءة وحين نتحدث عن محو الأمية فإننا نجد أمامنا تحديات لأُمِّيَّات فهناك:

أمية حضارية، أمية سياسية، أمية ثقافية، أمية رقمية، أمية في الوعي، أمية بيئية، أمية مدنية، أمية انتقادية (باولو فريري)...

إن الاستعمالات الوصفية لعبارة "محو الأمية" يصعب معها تحديد دقيق لتعريف الأمية لارتباطه بالمجال الإنساني وهو مجال متحرك مرتبط بالتغيرات السريعة للمحيط والأنساق السريعة للمخترعات والابتكارات في مجالي العلم والتكنولوجيا ولارتباطه بطموحات الإنسان وتطلعاته المستقبلية فضلا عن كون الناس يختلفون في الأهداف فنجد مثلا: محو الأمية من أجل الحصول على عمل في مقابل محو الأمية من أجل التحرر...

إنه من الصعب وضع تعريف للأمية فمعاني المصطلح تميل تميل إلى الانزلاق بعيدا عن الإمساك بها والواقع إن مفهوم محو الأمية مفهوم

مخادع تماما كما يقول هـ.س. بولا من جامعة أنديانا في مؤلف أنجزه للغرض لليونسكو "المرجع في جهود محور الأمية من منظور القاعدة الميدانية" ترجمة د. صالح عزب ص 29.

لقد تطورت تعريفات "محور الأمية" من خلال مرجعيات لجان خبراء اليونسكو ففي سنة 1951 عرّف غير الأمي بـ: "كل شخص قادر عن القراءة والكتابة وفهم نص بسيط يدور موضوعه حول الوقائع ذات العلاقة المباشرة لحياته اليومية".

وفي بداية الستينات عرف محور الأمية بأنه "القدرة على القراءة والكتابة باللغة الأم" فقد اقترح هذا التعريف حين كان عديد بلدان آسيا وأفريقيا تحت السيطرة الاستعمارية التي كانت تعلم السكان الأصليين لغة المستعمر وهو ما يمكن أن نطلق عليه بالتعريف الثقافي للأمية.

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

كما أوردت اليونسكو تعريفا آخرًا للأمية باعتبار كل شخص اكتسب المعلومات والقدرات الضرورية لممارسة النشاطات التي تكون فيها القراءة والكتابة ضرورية للعب دور فاعل في الجماعة المحلية وتحقيق قدر من المعرفة في هذه المهارات وتوظيفها في نموها الشخصي ونمو الجماعة. هذا وقد اتبعت هذه التعريفات بتعريفات جديدة لليونسكو مثيرة للاهتمام منها:

- "يعتبر شخصا متعلما من يستطيع قراءة وكتابة موضوع قصير ومبسط يدور حول حياته اليومية بفهم"

• "يعتبر متعلما وظيفيا كل من يستطيع المشاركة في كافة الأنشطة التي تتطلب إتقان مهارات محور الأمية اللازمة للتسيير الفعال لجماعته أو مجتمعه المحلي وكذا لتمكينه من مواصلة استخدام القراءة والكتابة والحساب في تطوير ذاته وتنمية مجتمعه".

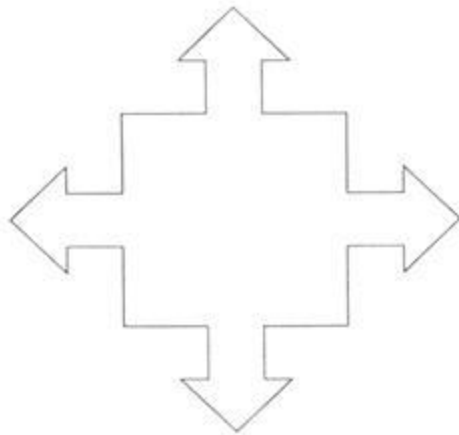
• "يعتبر أميا وظيفيا الشخص الذي لا يستطيع المشاركة في الأنشطة التي تتطلب إتقان مهارات محور الأمية اللازمة للتسيير الفعال لجموعته ومجتمعها المحلي وكذا اللازمة لتمكينه من مواصلة القراءة والحساب لتطوير ذاته وتنمية مجتمعه".

إن التعريفات الواردة لا تخلو من مشكلات لكونها تربط محور الأمية باستخدام المهارات داخل مجتمعات معينة ومختلفة متجنية الإشارة إلى المستويات التي يقاس عليها كما نلاحظ أن مصطلح "الوظيفية" بالصورة المستخدمة في التعريفات قد تغير، فالوظيفية كما جاءت في التعريفات 'عامة' تشمل كل الوظائف اللازمة للمجتمع المحلي، أما في التعريف الجديد فهو يركز على الوظائف الاقتصادية.

لقد قدمت سارة جودنسكي تعريفا يكاد يكون أكمل التعريفات المطروحة جاء فيه يعتبر متعلما (متحررا من الأمية) كل من: "يستطيع أن يقرأ أو يفهم ما كان بمقدوره أم يفهم إذا ما ذكر منطقيا أمامه ويستطيع أن يكتب أي يستطيع قوله بحيث يمكن أن يقرأ غيره" غير أن هذا التعريف أهمل مسألة العد وركز على اللغة الأم وقد وضع "كيث ليفين" تعريف "سارة" في صياغة جديدة "القدرة على اكتساب

المعلومات وتبادلها عن طريق الكلمة المكتوبة"ليشمل هذا التعريف مهارة العد.

أمام استحالة الوصول إلى تعريف جامع شامل وموحد نحو الأمية فإن هناك معنى ضمينا تدور حوله كل المناقشات هو ضرورة حصول كل التعريف الخاص جدا والمناسب له، وهو ما يمكن أن يأخذ به كل مشروع أو برنامج أو حملة نحو الأمية وليبقى التمييز بين أنواع الأمية ليس إلا منهجيا تساعد المنتم على الوقوف عنده هذه الأنواع المختلفة، في حين أن المقاربة الشمولية لظاهرة الأمية تقتضي مكافحتها في كل أبعادها ببناء وإعادة بناء الإنسان في إطار تصور منظومي شامل للتنمية بأبعادها المختلفة الفكرية والتربوية والاقتصادية والسياسية ليتعزز الشعور بالذات والإحساس بالمقاربة على المشاركة الفاعلة في البناء ومتابعة تطور الأحداث واستشراف المستقبل بثقة في النفس بعين آملة بتجاوز حالة "الإنسان ذلك الأمي" من خلال بوابة عبور "التعلم مدى الحياة" كخيار استراتيجي لبلادنا، لأن نحو الأمية يقتضي مزيدا من نحو الأمية.



سيدي حمادة

القرية الأصيلة

-4-

بقلم: عبد القادر الهاني

فضاءات لها مكانة في القرية:

على مدى عشرات السنين ظهرت ثلاث فضاءات كان لها دور

حيوي في حياة القرية وهي على التوالي:



1/ فضاء الحصاحصية:

الحصاحصية اسم للمكان الذي به المصلى وهي ما تزال موجودة إلى

اليوم وبالقرب منها زيتونة النجارة وكلاهما يقع على جانب الطريق

الغربية التي تبدأ من المدخل الشمالي للقرية (لمصال) وتتواصل نحو

الجنوب متجاوزة كل البناءات لتصل إلى عين الكاف الأخضر بجبل

السرّج.

زيتونة النجارة:

هي واحدة من جنان زيتون يقع شرقي القرية مواجهها للجهة

الغربية للكرومة الرطبة فيما بين عين الجد وخلوة سيدي عبد الملك.

وأرضيتها هي الأكثر اعتدالا من إخوانها المنتشرة على كامل المنحدر حتى مجرى الوادي (الواد الكبير) على ضفته الغربية.

موقع هذه الزيتوننة واعتداله جعلها الزيتوننة الأكثر أغصانا والأينع أوراقا وبالتالي الأوفر ظلا من البقية.

هذا لم تلبث أن أصبحت المكان المختار للاجتماع: البعض يشغل



وبالعوض الآخر

يمضي الوقت،

يلعب لعبة

"الخربة"

خاصة.

لعل أكثر

ما كان يشغل بعضهم به تحت هذه الشجرة هو نجارة الخشب لصناعة

المحاريث والقباقب وهو السبب في تسميتها بزيتونة النجارة.

كذلك من أهم الأنشطة التي تمارس في ظل زيتونة النجارة: قسمة

اللحم على المحسوبين باعتماد طريقة: القرعة ثم بيع "الدبش" بالمزايدة

(المزاد العلني) وفي الأعياد والمواسم تصبح زيتونة النجارة قبلة الجميع

حيث تحمي سوق اللحم فيها وتتعالى أصوات الدلالة مترنمة بتعابير

تضفي على المكان جواً على غاية من الموانسة.

2/فضاء المصال:

لمصال اسم لحنان زيتون يقع في المدخل الشمالي للقرية على ملك
عديد العائلات اعتاد الناس الحضور إليه والمكوث فيه لساعات في



الصباح والمساء

يتبادلون الحديث

ويزاولون أنشطة

خفيفة مثل: دقّ

الحلقة وفتلها

لصنع حبال

وأغشية وزنايل وقفاق وكمامات جديان مغرداتها (حبل، غشاء،

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

زنبيل، قفة، كمّامة جدي).

في أربعينيات القرن العشرون أصبح من المعتاد أن يزور الشيخ عبد
الباقي بن الملك شيخ زاوية جدّه عبد الملك، والمقدّم على زاوية سيدي
حمادة القرية لبعض الوقت من النهار فيجتمع مع أهلها في هذا المكان
"لمصال" لتبادل الرأي حول شؤون القرية.

وفي ستينات القرن العشرين كذلك أصبح في المصال حانوت (دكان
تجارة) مما عزز حضور الناس في هذا المكان. وفي بداية الثمانينات أصبح
لمصال يضم حانوتين إثنين: حانوت التواقي وحنوت الحاج حسين

يتعاطيان تجارة المواد الغذائية والخضار ومقهى أمسى محط أنظار الشبان بصفة مكثفة خاصة في فصل الصيف وفي الأعياد الدينية والوطنية. وفي عطلة آخر الأسبوع حيث يعود الكثير من أصيلي القرية إليها.

3/ فضاء سواني الشيخ:

هو اسم لبتعة تقع بين المتبرة وسواني الشيخ عبد الباقي بن عبد الملك شيخ زاوية سيدي عبد الملك الحمادي. استعمل هذا الفضاء ملعبا لكرة العقفة ومع بداية النصف الثاني من القرن الماضي استعمل وما يزال يستعمل ملعبا لكرة القدم إلى اليوم.

بقاع لها تاريخ:

-خلوة سيدي عبد الملك الحمادي في الكرومة الرطبة، وهي شبه مغارة كان الشيخ يعتكف فيها للعبادة.

-لسيدي عبد الملك الحمادي خلوة أخرى تقع في أعلى جبل السرج وهذه مبنية بالحجارة وبقايا البناء باقية إلى اليوم.

-خلوة سيدي عبد الله، هي فضاء مفتوح يقع على الممر الذي يسمى باسمه، وهو محاط من الجنوب والشرق والشمال بالمنازل والذي هو امتداد لممر الخلايفية لينتهي أمام فضاء الحصاحصية.

عادات وتقاليد:

مع توالي السنين والأحقاب نشأت في القرية عادات ما فتأت ترسخ وتبلور وتتأطر فتصبح تقاليد متبعة : قائمة بذاتها متميزة عما سواها. وتشمل :

1-الإعلام بدخول شهر الصيام وبحلول يوم العيد: في وقت سابق اعتاد أهل القرية إرسال مبعوث إلى سليانة، للاتيان بخبر دخول شهر الصيام أو بخبر حلول يوم العيد. وفي وقت لاحق أصبح مبعوثهم يتوجه إلى عين زكار(شمال القرية) حيث يقيم المعمر موزي الذي يملك جهاز راديو عن طريقه يسمعون الخبر، وفي سنة 1935 استقدم الحاج محمد التارزي جهاز راديو وانتصبت مروحة فوق داره بالقرية ومن ذلك الوقت أصبح الناس يتجمعون ليلة الشك قرب داره إلى حين يسمعون الخبر اليقين .

6-الإعلام بازدياد مولود أو بالشروع في العرس أو الملاك أو الختان: يكون باطلاق وابل من الزغrapاطات.

7-الإعلام بوفاة شخص: بصيحة(ويه) وهو لفظ عربي فصيح(1)، حاليا يتم الإعلان عن المتوفي بذكر اسمه عن طريق بوق الجامع بعد تلاوة آيات بينات من القرآن الكريم.

8-طلب نزول المطر:

عند انحباس المطر، وطول غيابه في فصل الربيع والزرع بان عطشه
فالتهمه الاصفرار، يخرج العديد من الناس يتقدمهم من اشتهر بالورع
ومعهم الشبان والصبيان ويتجولون في الحقول المحيطة بالقرية وهم
ينادون: قايمتنا الششهلولة تخرج شايحة ترجع مبلولة، و ينشدون: يا
رب بهم وبآلهم عجل بالغيث وبالفرج.

9- عتبة الدار:

العتبة هي الحجرة توضع على نخدي فتحة مدخل الدار ثم يتواصل
البناء فوقها إلى حدّ السقف. وعادة ما تختار هذه الحجرة من بقايا
الحجارة المنحوتة المتناثر في هنشير باز القريب من القرية (شمال شرقها)
ويوم يضع البنائي هذه الحجرة في موضعها من الحائط يذبح صاحب
المحل شاة أو طير دجاج أو يشتري لحما.

وحديثا أصبح ذبح الشاة عند تسقيف المحل الذي يعرف بصبان

الدالة.

-عند ذبح الشاة في العيد تؤخذ... وتلسق بالحائط قرب الباب.

10- غصّ الصوف:

أي غصّ الصوف، هذا ما تأمر به الأم أولادها عند سماع قول منكر.

11- قري الضيف :

" ليس قرى الضيف وإطعام من هم في حاجة إليه في قرية سيدي حمادة خلقتا عاليا وسحية عربية موروثة أبا عن جد - فقط - بل هو ومقتضى نص حبس الزاوية ، فرض عين على كل رب أسرة القيام به بحسب حاله " وحال من يقدم له الطعام

ومع تواصل هذا السلوك ردحا من الزمن ، أصبح للضيافة نظام مضبوط التراتيب. عهد بالسهر على حسن تنفيذه إلى شاوش الزاوية الذي يمسك بقائمة إسمية لأرباب الأسر بالقرية وهي موزعة على ثلاثة أصناف تعرف بالأدوار. الدور الكبير.



2- صلاة التراويح :

تؤدى صلاة التراويح في شهر رمضان عشرة ركعات كل ليلة بحيث يقع الختم ليلة 27 رمضان ثم تترك ختمة ليلي 28 و 29 من الشهر الكريم، وإذا كان الشهر كاملا أي ثلاثون يوما يتم ترك ختمة كاملة ليلة العيد.

والأكثر خصوصية في هذا الشأن، هو أن من يؤم المصلين بعضهم من المؤدبين، وأكثرهم من "الطلبة الكبار" (2) بحرص شديد من مؤدبيهم وسعي حثيث من أوليائهم، واستعداد كبير من الطلبة أنفسهم ، والطالب الذي يثبت أن حفظه جيد يعدّ ذلك شهرة له وفخرا لمؤدبه وشرفا لوالده.

- 3- الطبل في رمضان : اعتاد أهل القرية أن "يشقوا الفطر" أي يفتطروا عند سماع صوت الطبل بعيد الغروب. كذلك اعتادوا النهوض من النوم وتناول وجبة السحور عند سماع ضرب الطبل في آخر الليل.
- 4-جولة يوم العيد: الطبال الذي يضرب الطبل في موعد الإفطار ووقت السحور يقوم صباح العيد بجولة عبر أحياء القرية يضرب الطبل ويهنئ بالعيد، ويتلقى هدية العيد متمثلة في حلويات العيد(مقروض وغريبة) أو شيء من المال.

12- تزيين اللوحة :

اللوحة وهي الأدلة الأساسية في حفظ القرآن في الكتاب لا تغادره إلا في مناسبتين اثنتين:

<http://Archivebeta.Sakhrif.com>

- عند بداية العواشير(عطلة بمناسبة عيد الفطر وبمناسبة عيد الإضحى) يصطحبها صاحبها إلى المنزل وهي مزينة ليعود بها في نهاية العطلة.
- عندما ينهي الطالب ختم القرآن يتولى المؤدب تزيين لوحته حيث يعود بها صاحبها إلى منزله وفي هذا شهادة على بلوغ الطالب مرحلة متقدمة في باب حفظ القرآن. وعند العودة بها يقدم الطالب لمؤدبه هدية رمزية(مبلغ مالي زهيد)

13- تقديم الهدايا للمخطوبة :

في المناسبات الدينية: المولد النبوي الشريف وعيدي، الفطر والاضحى
يقدم أهل الخطيب إلى الخطيبة هدية تسمى الفكرية وهي في العادة:
ثوب مع فاكهة وحلويات أو لحم.

14- آخر تحضيرات العرس : قبل موعد العرس بنحو عشرة أيام ،
تنظم حملة تعاون لتجميع كمية مناسبة من الماء وأخرى من الحطب
تكفي لحاجة الفرح من هذين المادتين الضروريتين.

17- الفرزة :

وصلة موسيقية عمادها لغيمات تعبر عن مشهد فرح شخصوه: مخفل
نسوة غرضه استقدام العروسة إلى منزلها الجديد.

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

18- المخفل :

عشية يوم الزفاف يذهب نسوة من أهل العريس إلى دار العروسة
لاستقدامها إلى بيت زوجها في مخفل هذه صورته: تصطف النسوة
الواحدة بجانب الأخرى وقد غطت كل واحدة وجهها بـ تقريطة
وتجللت رؤوسهن بملحفة واحدة.

15- لباس الفتاة قبيل الزفاف :

- من العادات التي كانت سائدة في القرية :

الفتاة التي يقترب موعد زفافها تلبس ثيابا بالية وتكمل بعض شأنها، حتى إذا لبست يوم عرسها الحديد وازينت ، بدت على غاية من الحسن والبهاء.

16- وللعريس تقليد كذلك :

قبل الفرح بأسبوع يغيب عن أنظار والده وكبار السن من أقاربه وينام خارج المنزل وإذا كان ولا بد من الحضور بالمتزل، فإنه يأتيه ويغادره تحت جناح الظلام.

خلال الأسبوعين قبل وبعد العرس يطلق على العريس لقب "السلطان" وعلى العروسة: السلطانة.

19- دخول العريس يوم العرس:

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

يصطحب "العراصة" العريس إلى دار العرس بعيد الغروب وهم يرددون نشيد :

مولاي صلّ وسلم دائما ** على حبيبك خير الخلق كلهم

فإذا انتهوا عند باب الغرفة، ودخل العريس يأخذون في تلاوة الآيتين الأوليين من سورة البقرة . ثم ينسحبون .

20- المعنونة:

أ- معونة حرث. ومعونة حصاد.

من العادات المتبعة في القرية، عادة تنظيم معونة الحرث وهي تجمع مجموعة من الفلاحين لإنهاء موسم الحرث قبل فوات أوانه، أو لإنهاء موسم الخصاد قبل فوات أوانه كذلك. وفي الخريف تختتم المعونة بتناول فطور الغداء جماعة وهو كسكسي "بالرغيدة" أي بالخليب.

21- رغاطة عولة وأخرى لمشط الصوف

كذلك من العادات المتبعة أن تعتمد المرأة إلى دعوة عدد من النسوة لصناعة العولة (كسكسي ومحمصة) في يوم واحد، أو لمشط الصوف في يوم واحد أيضا، والفطور دائما كسكسي "بالرغيدة" أي بالخليب.

22- استقبال الربيع

من العادات التي كانت في السابق مستحسنة ولكنها فثرت في الماضي القريب والتي هي الآن آخذة في العودة من جديد. عادة استقبال الربيع، حيث تخرج العائلات ومجموعات الشباب خاصة إلى المساحة في حقول الفريش شمالي القرية وفي شعاب جبل السرج ودمنه يقضون جانباً من النهار في فسحة.... ويعودون شملين بالعديد من النباتات البرية: تلمة، قرين جذي، تفاف، كز.....

23- الخليطة :

خليطة للصغار وأخرى للكبار.

خليطة للأطفال: أساسها جولة داداش، داداش. الدار المتظمة لجولة داداش داداش تخضر صاحبته ما تجمع من قمح ومن شعير ثم تعهد به للأطفال الذي شاركوا في داداش.

أما خليطة الكبار فهي أن يقرر الشبان القيام بجولة في شعاب الجبل ودمنه وهناك وبالتقرب من إحدى العيون الجارية يطبخون طعامهم بأنفسهم يلعبون ويمرحون.

24- النفقة :

أكلة مرفهة بمناسبة الأعياد وكذلك يوم السوق الأسبوعية. وهي كسكسي باللحم في الليل، وعصيدة أو رفيصة أو ملاوي أو بغيرير في النهار .

25- الزردة : ARCHIVE

<http://Archiveheta.Sakhrir.com>

صدقة من طعام (كسكسي ولحم) وتترتب على وعدة (نذر) يؤتى بها في شكل شقالة أو قصعة إلى صحن الجامع حيث يدعى لتناولها طلبة الكتاتيب فيتدرون حولها فوجا بعد فوج بدءا بالطلبة الصغار ثم الذين يلونهم في العمر وكل فوج ينال نصيبا من الأكل يقال لهم : طار الحمام. طار الحمام كناية على أنهم أخذوا نصيبهم وليتركوا لمن بعدهم نصيبهم، ثم يتحلق الطلبة الكبار، وهذه الزردة الصغرى .

أما الزردة الكبرى :

فهي أن يشترك كل الأهالي في شراء غرمول أو بقرة أو عدد من رؤوس الماعز ويتقاسمون اللحم بعنوان صدقة على جدّ الجميع: سيدي حمادة وكثيرا ما تكون هذه الزردة عبارة عن غرمولين أو بقرتين يتبرع بها الشيخ عبد الباقي بن عبد الملك أو الشيخ عبد الستار بن عبد الملك، صدقة على الجدّ الأعلى: سيدي حمادة.

26- طبخ الدقيشة :

الحليب الذي يخلب من البقرة إثر ولادتها يسمى لبن يصنع منه مأكولا يسمى "دقيشة" تأكله العائلة ويعطى منه للجيران .

27- طبخ اللكلوكة :

طعام مستحضر من البسبوسة والسكر يطبخ عند ولادة المرأة.

28- صنع الجبنة : من حليب النعجة : في أوائل شهر ماي يتم جز صوف النعاج وفصل العاليش عن أمهاتها فيحلب الراعي النعاج ويصنع من ذلك الحليب جبنا.

من حليب العتر : يصنع من حليب العتر عند ولادتها جبن باستعمال "الدوث" وهو مستحضر من مصرنان الجدي

29- داداش .. ددّاش :

عندما يتأخر مشي الطفل (ة) يقال في شأنه : كرك، كركت أو عندما تتوالى وفيات الأبناء تنظم جولة : ددّاش ... دادّاش يقوم بها مجموعة من الصغار بنات وبنين يحملون الطفل الذي لم يمش بعد ومعهم قفة وكلما مروا أمام دار تستقبلهم صاحبة الدار بالترحاب وتعطيهم حفنة من قمح أو شعير أو بيضات وفي جولاتهم هذه تراهم ينشدون : ددّاش ددّاش ددّاش بالحباش قل قلية بالقجقاش.

30- تزيين الدار بتعليق ظفيرة من سنابل القمح :

يتم الاختيار على مجموعة من السنابل الممتلئة حبا والتي "سفافها" أسود يتم قطفها قبيل تمام نضجها وتظفر بشكل يجعل منها تحفة محبوكة الصنع جميلة المنظر، تعلق في المنازل وفي الحوانيت للزينة.

31- الأحواض المعلقة

<http://Archivebeta.Sakhr.net>

اعتادت ربّات البيوت أن يتخذن من بعض الأواني التي لم تعد صالحة مثل سطل الزنك حوضا يزرعن فيه نبتة نعناع وآنية أخرى بزرعن فيها بصلات ويعلقنهما على حائط من حيطان الحوش ومنهما يأخذن حاجتهن من ورقات النعناع لتفويج الشاي، وعرشات من البصل لتفويج الطعام.

31- وضع صابة القرع الأحمر فوق السطوح :

القرع الأحمر يحتاج بعد جنيّه أن يعرّض للشمس مدّة من الزمن ولذلك يوضع على سطح الدار مدّة من الزمن ولهذا ترى ديار فلاحى السقوي

مزدانة بعشرات من القرعانيات بين قرعانية كبيرة الحجم وأخرى صغيرة تسمى "بجيغة".

33- وضع أسراب الفلفل الأحمر: على واجهة الدار كامل فصل

الخريف حيث يتم حنافة وعندئذ يؤخذ للرحاية فيرحى ويصبح جاهزا للاستعمال اليومي.

كلمات مأثورة:

1- "البلاد هي راس المال".

القول لجنان بنت رحومة في معرض الحديث عن التعلق بالقرية: "تغرب ما شئت وأمشي وين أتحب وفي بحر البلاد هي راس المال" الرجوع إليها حتمي ولا بديل لها.

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

2- "إل بال يحيى نشوة م الصغرة"

قالها البلدي بن عمار.

3- "إلى يفهم شاق".

قالها عبد الرحمان بن عبد الله بن رحومة

4- "أركض يا لشهب؟"

5- "من عز البلوط المر دئال ربي الشواشي"

6- "كلام الليل مدهون بالزبدة"

7- "كلام عل مضمار"

8- النار تجيب الرماد"

9- "النار ولا عمّار"

10- "الحيلة ادق النيلة"

11- الملمّة تلم الكل"

12- "الحرث دواء والصيب عوام"

13- "يمشي ويذرر"

14- "هزّ الملمّة ولّ ثمة"

15- "بلع الصريمه بدمها"

16- "ابد زمّر من توّ"

تعود الأطفال - بنات وأولاد - عند ملاقة أحد التجار الذين يترددون على تونس للتجارة أن يطلبوا منهم أشياء يرغبون فيها، يا نحالي فلان جيبلي منداف، دوامة، مقياس، شناشن، زمارة... والجواب دائما: حاضر، الله يبارك.

ذات مرّة، قدّم أحد الأطفال للتاجر: عثمان بالرحومة قطعة نقدية قائلا: يا

- نحالي، جيبلي زمارة. فأجابه على الفور: أنت ابد زمّر من توّ والمعنى:

"إنّ قضيتك مقضية ولا بدّ"

17- قالوا يا رب أعطيني مال كثير ورأي رشيد. فقال يا رب أعطيني مال

كثير والرأي إلي عندي يزيني. محمد علي البلدي.

18- قالوا أهل العقول في راحة.

قال أهل العقول في حيرة. علي بن الطاهر.

19- سنل من نسي دعاء القنوت في صلاة الصبح ما عليه؟

قال: نقض عليه كذبة. علي بن الطاهر

20- الواحد ك يهز معاه كان غربال كتان

21- الواحد ما ياخذ كان: شبر م الأرض

22- بوزيد فقري بوزيد غني

23-المقدر يصير

24-المكتوب ع الجبين لازم تشوفوا العين.

25- ما تاكل كان الي كتبلك.

26- الناس بالناس والناس بالله.

27- عينتك في النصاري ولا قعدان خسارة.

28- الراس الجيعان ما يحدث ملاه فايدة

29- يا مول القدوارة لا تبيعها راه شتاها في ربيعها.

30- تهمز مرافق

31- الراكب نازل

32- كلمة زع تسوق البل الكل.

33- اعمل الخير وانساه

34- ضرب الطبال هانت الفلوس

من الحكاية إلى الأسطورة: حكاية ، فخرافة ، فأسطورة

عندما تستمر الحياة، ويتواصل الاستقرار، ويتكرر ترديد الحكايات، تنشأ الأقاصيص و ينشط الخيال الشعبي فيفرز قصصا على جانب كبير من الغرابة والعجائبية.

أساطير : وفي باب الأسطورة نورد أسطورتين لهما شهرة كبيرة في القرية.

الأولى : تذكر أن الولي الصالح : سيدي حمادة وهو يبحث عن أفضل مكان يتخذه مقرا له ولزاولته، وصل إلى المكان الذي فيه مقر الزاوية حاليا وكان وقتئذ "خشة" (1) عظيمة بما عرينة (2) أسد، تولى الولي مخاطبته بما مفاده : إنه يدعو لمغادرة المكان حالا، لأنه اختاره موطننا له، فاستجاب الأسد للطلب في الحين، وغادر المكان دون إبداء أية مقاومة ولا تلك .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

الثانية : تقول الأسطورة إنه وفي غمرة الفتوحات الإسلامية، ومن مظاهر بطولة سيدنا علي كرم الله وجهه، وفي إحدى الوقائع الحربية الكبرى وعندما كان قبلة جبل السرج قفز به حصانه قفزة اجتاز بها الجبل، وأثناء ذلك لطمت ساقا الحصان الخلفيتان أعلى الجبل أحدثت فيه ثلما وأبقته على الحالة التي هو عليها الآن.

(1) مكان تراجمت فيها أشجار غابية وتشابكت أغصانها بدرجة يصعب اختراقها .

(2) (عرينة) الجمع عرائن مأوي الأسد والضبع والحية والذئب

وطني ... هذا الجسد المثقل بي ...

شعر : صالح الطرابلسي

الإهداء : "إليك يا وطني ... أهدي ملحمتي ... هي لا تنتهي ... ولن
تنتهي ما دمت يا وطني حيا ..."

هذا الجسد المثقل بي ...

في ذاكرتي ...

بازميل الضنى سأحفره

فسيفساء ...

ARCHIVE

http://Archivebeta.Sakhrj.com

سار عجمه قلبا يتبص

بدمي يسري،

في سرايين هذا الزمان !

هذا الجسد المثقل بي

شجرة مباركة ...

زيتونة أغصانها بالذرى

هامت فتسامقت ...

وجذورهما ...

في الثرى غاصت ، ،

وطئت بأسها دهرًا ، فدانت

لها الأرض ذلولًا ...

لهبتها انحنى القاصي ...

وانحنى الداني ! ...

أما زيغيّ جدّي الأول ،

كان إقليدا (1) * فلاحًا

فلاح !
ARCHIVE

http://Archiv-beta.saknib.com

فأهدى لها العمر دفقا

من العشق ... ،

سقاها من العزم إكسيرا ...

كجدول الفردوس ...

سال هرهارا بالفلاح !

قال لي يوما ...

وهو على الفراش يموت :

"هذه الأرض أمي ...

منبتتي هي، ومن

وهج جمرها قد هندست

روحي ! ...

سقيتها عرقي ...

وجوف ثراها قد غرست

جذور جذوري !

وأمسي فوق أديمها قد

تنامي ورودا ...



تضوع فؤاحة يغدي
ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

مشيتي هذه الأرض ،

بما قدرني ...

فمن نطفة في ثراها خلقت،

ومنها بنيت حياتي،

ومنها نسجت لباسي ...

حصدت طعامي وخبزي ...

ومنها صنعت سلاحي، فصنعا ...

فصنعا حفيدي ،،،

حببي الأبي ! "

يومها ...

يا وطني، نقشتها على زندي

ملاحم جدي فأسا ورفشا

ومنجلا للحصاد !

ويومها ...

كتبتها نصيحة جدي

بحبر دمي حكمة ...



بنورها قد أشرق
شمس شذاها خروب
ARCHIVE
<http://Archive.aa.sakini.com>

بماء يسيل زلالا في جداول الذاكرة !

ويومها رسمتها أرضي نبضا

لقلبي صم بدأت أخط

على خافقي ملاحم حب ...

كبير ... كبير ...

كبير بحجم الزمان ،

بحجم الفضاء الفسيح ...

بحجم حاضرنّا ...

في هذه الدّنيا، يمضي بنا

طولا بعرض ! ...

نمضي به في نزوة عارمه !

بحجم غد ...

هو الصّدّي

لبوح الرّؤى في ملامحنا ...

ترجّعه ،

نواعير أياّمنا القادمة !

وجدتني يا سادتي ،

لا تعجبوا "كاهنة" (2) *

"لوبيّة" (3) * لوبيّه !

في عشقها أشجان ...

بركائهما ناري .

إن يشتّم

فالتسألوا "حسنّ" (4) *

حسنّ يعرف مآثرها .. ،

ويعرف دهاءها الثّوري ،

بالجنوب ... بالأوراس (5)*
يوم التقى الجمعان،
حسان يعرف شجاعتها ! ...
ويعرف بطولة النساء في
بسالتهن ذودا ...
عن الأعراض والأوطان ! ...

أبيض ...
يتفياً مدنا يرسى على
مرافئها الصباح ! ...
قد هيأ المتوسط للمدء
http://ArchivageaSaak.com

كل المدى
ريح الصبا ...
قد أشهرت سيف صبايتها
كي تفتح للظامين
بوآبات أخرى للهوى !

موكب من غيد الحضارات ،
يخترق الموج المزبد حلما ...

يرسم على صفحة اليم
تفاصيل ملامحها ! ...
تفتحت هذي السماوات
للنوء ، فتهاطل بالشذى
يعطر جدائلها !

قال جدي : من هذه الأميرة
التي ...

في جمالها الفتان ،
يخفر البحر ؟ ! ...
قال : أنا "عليسة" (6)*
<http://Archivebeta.sakhrif.com>

فينيقية النسب ...
من بلاد الأرز قد أتيت ،
سحر الصبا "بترشيش" (7)*
بصباياته قد سباني ! ...
"مقدار جلد خروف" 8* من أرضكم
تكفي لكي يخفق
الحلم مدينة تسبي العالمين مهابة ...
فتسود !

كل هذه الدنيا استفاقت
ملتحفة بكل ما في
التاريخ من ومضات ضوء ! ...
رقص البرّ مبتهجا ...
واليمّ قد شدت
في قاعة الصدّفات !
"ديدون" ارست على
هدب الزّمان ترفل في سناها !
عشاقها افتنوا جمالا
يا سحرها ! يا بكاها !
تستنهض التاريخ سجلا ! ...
يا مجدها ! ...
ها نجمها يسطع رائعا ،
في سماها ! ...
خرجت من أساطيرها القلاع
والأشعة ! ...
بسط لها البحر جناحين وقال :
يَمّي وأمواجي ...

يَمْتَهَا لك عرشا...
فتربّعي على مده ... ،
وابسطي ما شئت من بأس ...
وافتحي ...
رائعات الفصول في
سفر هذه الملحمة !

قرطاجة تمضت ...
أشرق في سماء
هذه الدنيا شمس حضاره
أنوارها قد غزت أمما

<http://Archivebeta.sakhr.net>

روما ... فراعنة ... تتارا ...
ركع المحيط ...
سجد الخليج ...
قد أومضت
في كل ناحية، لقرطاجه مناره !

غضب "القيصر الرومي"
فاستشاذ لهول النفوذ،

حسدا وبغضا : .. تكتّم ثمّ

باحا ...

كشّر عن أنيابه الكلب

مسعورا !! ،

والقط قد كشف عن مخالفه

شاهرا سيوفه ،

والرّماحا ! ...



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhr!!l.dz>

دمك نسغ لروحي فلن

يهد روه سفكا وقتلا !

وانمال يطاردهم حتّى

"صاغونت" (10) * و"طورزمان" (11) *

و"حنّبل" (12) * الإبن / الطائع / الرؤوم /

الشّجاع ،

"بكانة" (13) * ...

قد كسّر شوكتهم ،

فإذا الرّوم على "جبال الألب" ... (14)*
وعلى صفحات المياه " بنهر الرّون" (15)*
يجرّون ...

أذيال خيائكم

صرعى وقد

أفناهم الخذلان والفشل !

قيروان السّور العتيق ...

والصّبايا الحور، يجبن الشّوارع ،،

ملتحفات في الأبيض.

في الأسود ... ،
ARCHIVE

كالأيادي التي ما أمتت !
<http://ArchiveBeta.Skynet.com>

أو كليل يعشّش

في الأكفّ ! ...

الأسود والأبيض :

لونان في تقابل، لكي

تحيا الحياة !

قيروان ...

والزّذرايّ مبثوثة دفقا من جمال

جمل "بروطة" (16) على عادته،
يحمل مناهلها ويدور لينشرها
في بواكير الزمن !
والناعورة تنعر من نبذ الروح ماء
فيشرب الظامئون مريثا
حتى الإرتواء ! ...

*** **

حفاة ...

عراة كآدم وحواء ! ...

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

ندخل محرابك،

للصلاة وللحساب ! ...

قيروان ...

"يا لمقامين الشّهيدين

الشّاهدين"

يا لمسجد الجامع ! ...

يا لمنارة الكبرى،

عشاقك نحن :

جنناك لكي نتطهر بماء

الرسالة السّمحاء ! ...

قيروان "عقبة" والفتح

المبين ! ...

قد شيد أركاناه

حتى مياه "المحيط" (18)*

اللهم أشهد أنني

قد أبلغت الجهود

ولولا هذا البحر ...

لمضيت في البلاد ...

أقاتل من كفر بك حتى،

لا يُعبد أحد

من دُونك 19*

المواشم :

- 1- إقليد : رتبة اجتماعية يتقلدها شيخ القبيلة البربرية في زمن البربر
- 2- كاهنة : الكاهنة البربرية التي قاومت حسان بن النعمان كان الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا
- 3- نوبية : نسبة إلى نوبيا وهو اسم للبلاد التونسية في العهد اللوي
- 4- حسان : المقصود حسان بن النعمان فاتح الشمال لأفريقيا فتحا غائيا
- 5- الأوراس : جبال أوراس بإفريقيا
- 6- عيسى : مؤسسة قرطاج سنة 814 ق م وتسمى أيضا "ديدون"
- 7- ترميش : تونس
- 8- مقدار جلد حروف : هكذا تقول الأسطورة أن عيسى الشترت من البربر مقدار جلد حروف من أرض بنت عليها مدينتها الجديدة "قرطاج"
- 9- أميلكار : قائد قرطاجي
- 10-11- مدينان في إسبانيا
- 12- حنبعل : ابن القائد أميلكار : قاوم الرومان حتى الموت
- 13- كانه : مدينة إيطالية تغلب فيها حنبعل على الروم
- 14-15- جبال الألب فخر البرون : شمال فرنسا
- 16- بروطة : مكان في القيروان المدينة
- 17-
- 18- الخيط : المقصود الخيط الأضلسي
- 19- قولة عتبة بن نافع حين وصوله مياه الخيط الأضلسي

رحلة إلى الماضي

قصة: إيمان الباي

في الثاني من آب عام ثلاثمائة وأربعة آلاف، فمضت على صوت المنبه. فبدأ اليوم منذ البداية مملاً ثقيلاً، وروتينيا كالعادة. فناديت على "روبوتان" وهو آلة مبرمجة تلبي جميع طلباتي. فنحن في كوكبنا- الأرض- كل فرد منا يمتلك مساعداً آلياً. فطلبت منه فطور الصباح. وبعد الانتهاء منه، ذهبنا سوية إلى غرفة الكمبيوتر لأتلقى دروسي. وفي أثناء ذلك تلقيت مكالمة من صديقتي "لارا" في كوكب المريخ، تدعوني لقضاء بعض السويكات معها، فاعتذرت لها متصنعة المرض فقبلت بالأمر. وفي الحقيقة لم يكن ذلك السبب الحقيقي لرفضني ولكنه الملل، نعم الملل، مللت من كثرة السفر إلى المريخ، والقسر وغيرها من الكواكب المخطئة بنا. فنظر إليّ "روبوتان" قائلاً:

"أنتم معشر البشر كثير الملل والضجر على الرغم من توفر جميع ما يحظر على البال من وسائل الترفيه. فنحن الآليون نكون سعداء بتلبية حاجياتكم، ولا يحملنا ذاك إلى الملل أبداً."

فابتسمت وقلت له. - "أنتم تنفذون حسب رغباتنا، وحسب البرمجة المعدة لكم، أما بالنسبة لي فأنا أبحث عن شيء جديد غير مألوف، شيء يدعوني إلى البحث، لا أدري حقاً، فكما تعلم، كل شيء متوفر: أكلتي في معلبات، المعلومات تأتيني جاهزة عبر الكمبيوتر، حياتي عبارة عن مجموعة أرقام، الساعة كذا أنام، الساعة كذا أقض، وهكذا دواليك. حتى والدي أراهما مرة واحدة في الأسبوع، فيما منهمكان في النازا ومشاكل الفضاء، أما أخوتي فحدث ولا حرج، دائمو اللهو والمشاكل والمشاركة في سباقات السفن الفضائية وغيرها... ولكن يبقى..."

وقاطعني أبي الذي يتصل عبر الهاتف المرئي. وعندما التفتت إليه، أخذني الضحك حتى دمت عيناى وقلت: - "مالك يا أبى، أكاد لا أعرفك، ما هذا السواد الذي على وجهك." فضحك أبى: - "فعلا، وجهى ملطخ بالزيت والدهان فأنا منهمك منذ الصباح فى التصليح، فالآليون وحدهم لا يكفون. وما اتصالى بك إلا لترسلى مع "روبوتان" بعض الأوراق التى نسيتهما على مكتبى".

فقلت له: - "طبعاً، طبعاً سأرسلها حالا".

فقال لى - وأنت ماذا تفعلين؟ أم مازلت فى النعمة نفسها. "فأجبتة: "بلا، يا أبى، إن الضجر مازال يخنقنى ويقطع أنفاسى. فردّ على: "حسناً، حسناً، حاولى مقابلة الأصدقاء للترفيه عن نفسك ولن نتأخر أنا أمك بالعودة. إلى اللقاء".

إلى اللقاء أبى. وأعطيت روبوتان الأوراق التى طلبها والذى ليوصلها إليه، وبعد فترة وجيزة، عاد "روبوتان" فى مخبر والذى.

فقلت له: - ماذا يفعل والذى؟ وما الذى يصلح. "فقال: - "لا شيء البتة، فقط يقوم بإصلاح آلة الزمن مع فرقة مختصة". فقلت باندماش. "ماذا؟! أعد على سمعى، آلة الزمن؟، ولكن ما تكون؟ فقال: - أو لا تعلمين بالقصة". قلت: "أية قصة".

فقال "قصة آلة الزمن".

فقلت: "دعك من المراوغة وأخبرى بما بسرعة: لقد أثارى فضولى"

فقال: "حسناً، حسناً، تمهلى، أنا لا أعرفها بالضبط، ولكن لندخل إلى غرفة المعرفة ونسأل "السيدة عارفة"

فقلت: "ألا يمدنا الكمبيوتر هنا بالمعلومات." فقال: "هذا لا يكفي فهو يقدم بإيجاز، أولاً تريدان معرفتها كاملة؟"

فقلت: "نعم، نعم، هيا بنا"

فدخلنا إلى غرفة المعرفة، وضغطت على بعض الأزرار لكي أسأل "السيدة عارفة" عن مطلبي وهي طبعاً ليست من بين البشر وإنما هي الأخرى آلة مبرمجة بخلاف "روبوتان" والآليات الأخرى، ونحن ندعوها "السيدة عارفة" فقط لأنهما تعرف كل شيء. فسألتهما عن قصة آلة الزمن. فأجابت: "كما تعلمين، منذ قرنين ونيف تقريباً، اكتشف الكوكب الأرض من كثرة البشر، فوجدوا في الكواكب الأخرى مثل نيتون، المريخ، الزهرة وغيرها، المفر الوحيد للبقاء على قيد الحياة." فقاطعتها وقلت: "ولكن ما دخلنا في هذا، سألتك عن آلة الزمن فقط." فقالت: "أجل، أجل، أعرف ولكنه السبب المباشر في التفكير في اختراع آلة الزمن، فأصغي ولا تقاطعني. إذن قلت وجد البشر راحة كبرى في العيش على الكواكب الأخرى بعد ما بلغوا من علم وتقدم. لكن الأمر لم يدم وهماي الكواكب تكتظ شيئاً فشيئاً وسوف نفوذ إلى نفس المشكلة، لذلك أقترح أحد الخبراء في كوكب زحل اختراع آلة الزمن التي تحملنا إلى المستقبل و...." فقاطعتها: "ماذا إلى المستقبل؟ ولكن كيف؟" فقالت: "ألم أقل لك لا تقاطعني، فإذا أردت معرفة القصة كاملة، فدعيني أكمل."

فقلت: "حسناً، معذرة، وأصلي أرجوك."

فأكملت قائلة: "فكرة محاولة الوصول إلى المستقبل كانت غير مستحيلة في البداية فقد قدّم هذا الأخير تصاميمه وكل ما يلزم الاختراع، لكنّه للأسف مات قيل ان ينهيها، وبالتالي فشلت محاولة التخفيف عن الكواكب، وقد حاول من بعده العديد من المخترعين تصميم هذا الجهاز، لكنهم فشلوا وأخيراً جاء والدك بفكرة جديدة لانجاز الاختراع، حتى عرض الذهاب إلى المستقبل، يقوم هذا الجهاز بالعودة إلى الوراء أي بالعودة إلى الماضي في أي زمن تختارينه، وهماو والدك يحاول جاهدا معرفة سرها"

فقلت لها: "بمؤنك السيدة عارفة، وتعرفين كل صغيرة وكبيرة، فما المانع في أن تكتشفي لهم سر هذه الآلة"

فقلت: "لأول مرة لا أعرف إجابة عن سؤال، فيرمجني لم تحمل إجابة عن هذا." فضحكت وعدت إلى غرفتي. ولكن فكرة آلة الزمن أثارت فضولي وحملتني على التفكير في تجربتها، لم لا أنه شيء مثيرا حقا. وقفت فجأة وقلت "لروبوتان": "أتعلم، لقد قررت الذهاب حالا إلى مخبر والدي وتجريب آلة الزمن."

فقال: "أنت فعلا غريبة الأطوار، ألم تسمعي السيدة عارفة، لقد قالت أنه جهاز في طور الانجاز والتصليح، فما رأيك لو عدنا إلى الماضي ثم إن شئنا العودة تعطل الجهاز."

فقلت: "أرجوك" "روبوتان" كفاك ثثرة، لقد قررت وانتهى الأمر. ستكون تجربة مثيرة، ولكن إلى أي زمن ستعود. هل لك اقتراح" فقال: "لم لا تجري الإنسان البدائي."

فقلت: "ماذا؟ لا. لا. شيء ممل. أنا أعرف كل شيء عنه عبر الكمبيوتر. فقال: "ماذا عن الديناصورات"

فقلت: "كلام أبحث عن شيء آخر يثير اهتمامي" فقال: "لم يعد في جعبتي الكثير عما أعرفه عن زمن قد فات وولى واندثرت معه كل الذكريات، وها أنتم الآن معشر البشر تفتمون بالفضاء والتكنولوجيا. آه تذكرت، على ما أعتقد ليس لديك أية فكرة عن الشعراء.

فقلت: "ماذا تعني بالشعراء؟ برنامج الأروس بالكمبيوتر الذي أتلقاه منذ الصغر لم يمدني بأية فكرة عنهم، ولم أسمع عنه من قبل"

فقال "روبوتان" أعرف شخصا مناسبا قد يمدك بالمعلومات التي تريدونها"

فقلت له: "ولم الإطالة، هلمّ نذهب إليه، ففي أي الكواكب هو؟"

فقال: "إنه شيخ غريب الأطوار يقطن بالجنوب وهو يعيش بين الكتب وذكريات الماضي"

ومع شقشقة الصبح الندية، قصدنا الجنوب بحثا عن الشيخ. فأرشدني جهاز "القيشتابو" إليه.

فوجدت شيخا قد بلغ من العمر عتيا، جاسا قبالة الشمس، فألقيت عليه التحية، فرد بأحسن منها، وطلب مني الجلوس حذوه فجلست. فقال لي: "ما طلبك؟" ما طلبك يا ابنتي

فقلت له: "جئت، أسألك عن الماضي"

فابتسم الوحيدة التي سألتني عن الماضي، بل العديد من الشباب الذين أرققتهم حياتهم السهلة، راجين مني أن أبيع لهم ماضيّ مقابل إحدى ناطحات السحاب أو إحدى السفن الفضائية أو رحلة فلكية.

فقلت له: "يا عماد، إن كلامك غريب وملغز لم أفهمه، وربما أنت لم تفهم سؤالِي. جنتك من أجل أن تعرفني أو حتى تعلمني ما تعجز عنه الآلات. ذلك الماضي البعيد المندثر أو ذاك التراث الذي لم تعطه حقها، وجذبنا قوى سيطرت على عقولنا وأهواننا، فأصبحنا مثلنا مثل الآلات التي إحتار عنها".
<http://Archivebeta.Sakhrit.com>
 فنهض الشيخ وقال لي: "أتبعيني."

فتبعته صامتا ودخلنا إلى بيت غريب، في الداخل كل الأركان في البلور، إنها مرايا عوض الحجران. وأثاث متناثر هنا وهناك. فاستوقفت الشيخ.

فقال لي: "حتما ستسأليني عن هذه المرايا."

فقلت: "بلا"

فقال: "فقط لكي لا أنسى ماضيّ ونفسي"

فقلت: "بودي أن أفهم كلامك، ومراميك. فما المرايا وماضيك، وحتى هذا السبب، سوى مجموعة من الرموز التي تفهمها وحدك"

فقال: "صدقت. المرايا، تذكرني بنفسي وتساعدني على النسيان، فأنا أرى نفسي في كل لحظة، في كل برهة، لأنسى هجران زوجتي وأبنائي لتمسكي بالماضي. وهم

ركضوا وراء مطامع العالم وما يحققه التقدم، هذا لا يعني أني ضد التقدم والتكنولوجيا، ولكن تمسكي بالماضي هو ما ورثته عن أجدادي. وهنا استفهمني أكثر ماذا أعني"

فقيت أنظر إليه، وأحسست أن بداخله ألم، لا أظن أن المرايا ستساعده على النسيان. ودخلنا غرفة تطل على سهل أخضر طبيعي. فاندھشت وقلت: "أمر لا يقدر أ مازال هناك رقعة من الأرض خضراء في وقتنا هذا؟ أقسم إنما الوحيدة الباقية، فكل الأماكن شاغلة بالمعمل والمصانع وناطحات السحاب، وحتى أن وجدت بساتين أو حدائق فهي اصطناعية، عطر الزهور مزيف، وبساط الأرض الأخضر وهمي، أما ما أراه أمام عيني إنه حلم ولا شك".

فقال الشيخ: "بل أنت ترين الحقيقة. هذا هو ما تبقى لي من الماضي تلك الحقيقة التي حاولوا نزعها مني". فابتسم وقال: "أنظري حولك في هذه الغرفة.

فالتفت فإذا بي في مجمع من الكتب، وفي آخر ركن من الغرفة كان موضع حاسوب قديم.

فقلت: "بم أنك مستقل عن العالم الخارجي، فلماذا هذا الحاسوب؟

فقال: "أنتم برمجتم حواسيبكم على ما يعلق بحياتكم المستقبلية، فمؤكد أنك تتلقين دروسا في الحاسوب مختصرة على العلوم الفضائية وغيرها، أما هذا الحاسوب فقد برمجته ذاكرتي، وضعت فيه كل ما أمتلك من معارف ومعلومات أدبية لا غير، لكي لا تخونني الذاكرة وبهذا أحفظها في الحاسوب أما هذه الكتب فهذا ما ورثته عن أجدادي وحافظت عليها من التلف والضياع فماذا تريدني أن تعرفي؟

فقلت له: "أتعلم يا سيدي أنا سعيدة جدًا لتعرفني عليك. جنت، لأنه استعصى علي فهم كلمة قالوها لي "روبوتان" خادمي الآلي: الشعراء فمن هم؟" فأجلسني الشيخ على منضدة وقابلني بواحدة أخرى وأخذ كتابا تلو أخرى هو يعدد لي شعراء لم أسمع بهم من قبل وأراني دواوينه الشعرية ولم يكتف بذلك بل انتقل إلى النشر وعدد لي

الأدباء وقدم لي آثارهم الخالدة. وأنا مندهشة لما أسمع ولما بين يديّ لكني استوففته عندما روى لي رسالة الغفران للأديب الكبير "أبي العلاء المعري" نقلت له هذا لا يعقل، رجل عاد من الموت ليأخذ قلمه ويكتب عما رآه في الجنة وجهنم على لسان أحد أصدقائه

فضحك الشيخ وقال: "لا يا ابنتي إن أبا العلاء المعري قد تحيل عالمي الجنة والنار في رسالة الغفران كردّ على رسالة أرسلها ابن القارح، وما هي إلا نقد لعصوه وسخرية من ابن القارح وأمثاله وفيها مراوحة بين النثر والشعر. فقلت له: "أه فعلا، كاتب غريب. حسنا لقد تأخر الوقت. وأنا آسف لأنني أخذت من وقتك الكثير وربما أرهقتك بتساؤلاتي وذكر ذلك الكم الهائل من الشعراء والأدباء."

فقال: "لا. لا أبدا، بل أسعدتني بقُدومك والحديث عن الشعراء. فقلت له: "إذن أسمح لي أن أروك بين الحين والآخر لأعرف المزيد" فقال: "مرحبا بك في أي وقت".
<http://Archivebeta.Sakhril.com>
وودعته. وحملت سفيني الفضائية وعدت إلى مدينتي، وفي الطريق قال لي "روبوتان": "أظنك الآن قد ارتاح بالك، ووجدت ما يبعدك عن الضجر، وأيضا الاستغناء عن فكرة تجربتك لآلة الزمن

فقلت له: "بل زادني هذا تصميمًا وإصرارًا على أن أجربها فقال لي: "ظننت لوحة أنه بالإمكان الإصلاح من أمرك شيئًا، لكن أظن أنك تريدني معرفة المزيد عن المعلقات السبع، فقد أظهرت إعجابًا بذلك الشيء" فقلت: "أخطأت مرة أخرى، بل سأزور المعري وأعرف المزيد عن عالمه" وحدثت بسفيني إلى مكان نخبر والدي. فقال "روبوتان": "لقد أخطأت الطريق، فهذا لا يؤدي إلى المنزل

فقلت: "لن نعود الآن إلى البيت، بل سنقوم على الفور برحلتنا إلى الماضي"

وعند الوصول واجهتني صعوبة في دخول مخبر والذي لأن الباب لا يفتح بأرقام سحرية، لا يعرفها سوى أبي. لكن راودتني فكرة قد تنقذ الموقف. فطلبت من "روبوتان" البحث عن الأرقام السحرية، وبعد فترة زمنية، فتح الباب أخيرا وأمكنني الدخول. فإذا بعيني تقع على مركبة صغيرة كروية الشكل، عرفت إنها آلة الزمن. لكن ليست لي أية معرفة بتشغيلها.

فقال لي روبوتان: "لا تحملني هما، عندما أحضرت الأوراق لوالدك رأيته وهو يجرب تشغيلها" ففرحت كثيرا وقلت: "هيا لنعد إلى الماضي".

وأراني روبوتان كيفية تشغيل آلة الزمن. فوضعت في بادئ الأمر، الزمن الذي أريده وهو القرن الخامس للبحيرة في زمن كتابة رسالة الغفران. المكان معرة النعمان. وقت الرحلة ساعتان.

ولم يطل الأمر كثيرا، فاشتغلت الآلة، وتمسكت بكرسي جيدا. وعدنا إلى الماضي فأوصلتنا الآلة إلى صحراء قاحلة. وعلى بعد لاج ليقود قطيعا من الإبل، فخلته في بادئ الأمر إنه حيال السراب.

ولكن عندما اقتربت منه وجدته حقيقة، فألقيت عليه التحية. وعندما استدار الرجل ليرد التحية. أخذ يصرخ ويركض تاركا قطيعه وهو يستنجد بقومه قائلا: "النجدة يا قوم النجدة، لقد خاطبني عفريت" فاستغربت وقلت "روبوتان" ولكن ما الذي أفرعده؟ أردت فقط أن أسأله عن بيت المعري لا غير، فلم يتح لي الفرصة. فهرب مني مجرد التحية.

فقال "روبوتان": "أنا لا أعلم، ربما مظهرنا أرهبه، فنحن لا نشبههم"

فقلت: "نعم، مؤكد أنه هو السبب الذي دعاه إلى الهروب"

وشققنا كثران الصحراء متبعين آثار الرجل، لعله يوصلنا إلى معرة النعمان ولاحت لي عن بعد قرية صغيرة محيطة بسور عال، وباب كبير مفتوح. فاقتربت ودخلت المدينة، فلا تسمع سوى ضجة عالية وصراخ الباعة من هنا وهناك ولكن الأمر الذي

لم أتوقعه أن تنهاتل علي الحجارة من كل حذب وصوب. فالتفت ورائي فإذا بذلك الرجل الذي فر مني يسبق مجموعة من الناس ويشير إلي قائلا: "هذا هو العفريت هيا أقتلوه".

فأمسك الرجل بالعصا والحجارة، فأخذني الفرع فلو تكلمت لما فهمني أحد، فقررت الفرار. وأخذت أركض من زق لزق والناس يتبعوني بالصراخ والعصا والحجارة والسيوف. وما زاد الطين بلة إذ دخلت زقاقا لا يفتح على آخر وصراخ الناس يقترب مني. إلا أن الله ساعدني فوجدت بيتا هو أقرب إلى كوخ، بابه مفتوح، فدخلته بسرعة وأغلقت الباب ألمث من شدة التعب. فسمعت أحدهم يقول: "هيا، هيا لنبحث في الزقاق الآخر لعله مرّ من هناك"

فحمدت الله، وابتلعت ريقى، عندما التفت، لا أعرف مكاني، وجدت رجلا ضريرا جالسا على حصير بال وهو يحاول إيجاد تفسير للضجة التي يسمعتها فإذا به يقول: "يا غلام انظر ما الذي يحدث بمجرة النعمان". فخرج خادمه مهيولا وهو يقول: "حسناء، حسناء، يا سيدي، س...". ولم يكمل جملة لأنه رآني، فوقع مغشيا عليه.

فتقدمت من الشيخ الضريبر وألقيت عليه التحية. فرد قائلا: وعليكم السلام. من خلال الصوت أظنك امرأة، فما حاجتك؟ وصاح بالغلام قائلا: "يا غلام أكرم الضيف".

فقلت له: "يا سيدي إن الغلام بجانبك مغما عليه، بسبي" فقال: "ولكن لم، ماذا حدث"

فقلت: "لقد وصلت لتوي، والضجة التي بالخارج هي بسبي أيضا إن كل من يراني يحسبني عفريتا، وغلامك من بينهم. وما

أنا سوى فتاة جنت أبحث عن أبي العلاء المعري فأرجوك أرشدني إليه"

فقال لي الشيخ بلطف: "تفضلي يا ابنتي واجلسي، فأنت أمام من تبحثين عنه"

فقلت: " يا للصدفة، أرجو أن تعذرني لكيفية دخولي عليك بدون استئذان فقال: " يا سيدي لو قلت لك من أنا ومن أين جئت لما صدقتني وربما اعتبرتني من المخبولين. فلو كنت تستطيع أن...

فقال لي: لا بأس، لا يقلقني أن تذكرني بأبي ضريح، فأكملي ولا تخجلي " فقلت: "أرجو المذرة أظني قد لبخت من الكلام، يا سيدي أنا باختصار، من المستقبل. وقد فزع الناس مني ربما لأنني أردي لباسا أبيض مصنوعا من الزئبق يحميني من حرارة الصحراء وأيضا لأني من زمن غير زمي، كما تنفرع منه بعض الأسلاك، منها ما تساعدني على التنفس وأخرى على إيجاد توازي في هذه الأرض لذلك اعتبروني عفريتا وغلانك أغمي عليه عندما شاهدني، ولكن يا سيدي ما سمعته مني قد يثير استغرابك، كما أثار رسالة الغفران دهشتي وحمليتي على أن أزورك، فلم أتوقع أن يحدث لي هذا

فقال: "قد تقولين الصواب ولكن على الرغم من كل هذا، أهلا بك فما مطلبك فقلت: "عندما قرأت رسالة الغفران، حملني تيار جارف من الأسئلة التي لم أجد لها إجابة ولم توصلني إلى بر اليقين، لذلك أن أعرفها منك شخصيا" فقال لي: "تفضلني، أسألي ما شئت فكلني أذان صاغية"

فقلت له: شكرا لك. سؤالي الأول، لماذا رددت على ابن القارح بهذا النوع من الكتابة الموعلة في الألباز والأغراب اللغوية؟ في حين أنك كنت من الممكن أن ترد عليه برسالة عادية، فإذ بك تؤلف كتابا كاملا، فما الغاية من ذلك؟

فقال المعري: "سؤالك وجيه جدا إن ردي على ابن القارح، بذلك الأسلوب إنما الإحساس أن موضوع توبته موقف يمسي ويمس الآخر بل ويمس مجتمعنا، وربما العصور القادمة. فلم أشأ أن تغفلت مني هذه الفرصة، لأنقد ابن القارح ومن شاكله في سلوكه وأفعاله، وأصلح في نفس الوقت من أفكارهم ومعتقداتهم بطريقة فنية ساخرة"

فقلت له: "نعم، فهمت، ولكن هل برسالة الغفران أردت أن تخلق منها علما خاصا بك، كهريا من سجونك الثلاث مثلا؟"

فقال: "قد يكون ذلك جزء من حقيقة رسالة الغفران، ولكن ما لم يتفطن إليه أحد هو أنني ما تخيلت عالم الجنة والنار إلا لغرض في نفسي وهو ردا على من اتهمني بالزندقة والإلحاد والكفر، ومن لا يعطي أهمية للأدباء والشعراء وغيرهما من المواضيع التي تطرقت إليها في رسالة الغفران."

فقلت: "لذلك كان أغلب أبطال رسالتك هم من الأدباء والشعراء، على الرغم من أن قد صنفتهم حسب قيمة أثرهم، وما هذا إلا لمعرفة الواسعة بهم ولكنك على الرغم من محاولتك إصلاح فكرة أنك مارق عن الدين إلا أن رسالة الغفران قد زادت من سوء فهم الآخرين لك وعمقت الفجوة بينك وبين التواصل معهم. ولكن لماذا كل تلك التهم والسخرية من ابن القارح بأساليب باطنية أو أنك تعمي القارئ عن كشفها؟ أهو الخوف أم الخجل من أن تصبح في نظر ابن القارح الذي اختارك لتصححهم رجلا منافقا ينتظر القرض ليستخر من الآخرين؟"

فقال: "لا هذا ولا ذاك، كنت سأضع رسالة الغفران لابن القارح أو من دونه كنت سأبحث عن شخص أجد في سلوكه وأفعاله ما لدى ابن القارح، فوجدت ضالتي في هذا الأخير، وما تمكمني إلا إيماني بتوبته الكاذبة.

فكيف لشهواني ومتهالك على الخمرة والنساء أن يتوب بهذه السرعة والبساطة تجرد أن المنية قد قربت منه. وما رسالة الغفران إلا خيال في خيال، تبقى الجنة وأفرادها أو عالم المغيوب ككل من صنع عاقلتي فأردت بما أن تكون أثرا أدبيا تعجز الأبواب عن تصوّرها والإتيان بمثلها وأنا أشد الإيمان بأنه سيأتي يوم يفهم فيه الناس قيمة رسالة الغفران وغيرها مما كتبت، فعقول أهل عصري متحجرة، لا يعطون الشيء حق قيمته، ويفهمونه على وجه الخطأ دون إعطاء فرصة للجدال والحوار."

وفي تلك اللحظة، جذبني "روبوتان" قائلا - "لم يعد من زمن الرحلة سوى ثوان، علينا العودة حالا وإلا عادت الآلة من دوننا".

فقلت: "حسنا، حسنا".

والتفت إلي المعري وقلت له: "بودي يا سيدي أن أسألك وأعرف المزيد عن رسالة الغفران وعن حياتك، ولكن الوقت تأخر، وهامو غلامك قد بدأ يستفيق ولا أريد، أن يغمى عليه مرة أخرى.

أستودعك الله، وأعلم أن أدبك سيكون خالدا إلى الأبد".

وعدنا إلى زمننا وانتهت رحلتي في الماضي. وعندما خرجت من آلة الزمن سارعت بالخروج من مخبر والدي لأني سمعت وقع خطوات. وقد كنت على صواب فقد حضر والدي. والحمد لله أبي عدت من الماضي قبل وصوله.

فقال لي: "هل حدث شيء؟ هل أنت بانتظاري منذ مدة؟"

فقلت له: "لا أيا أبي لا تقلق لم يحدث شيء، فقط أردت أن أستسمحك للذهاب إلى المعرة، أقصد الذهاب إلى المريخ، فلأرا قد دعني لزيارتها".

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

فقال لي: "حسنا، يمكنك ذلك، ولكن لا تتأخري،"

فتركته وخرجت راكضة.

فقال لي "روبوتان". "لو تفتن والدك للأمر لكنت نحائنا."

فقلت له: "لا بأس. الأمر كان ممتعا. وسوف نقوم قريبا برحلة جديدة".

